

قضايا العصر

في ضوء الإسلام

تأليف

الأستاذ أنور الجندي

السنة الثالثة - الكتاب الثامن والثلاثون

١٥ من شعبان ١٣٩١ هـ - أكتوبر ١٩٧١ م



سلسلة البحوث الاسلامية

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. محمـــــد ديـــــاب

جراح بالمستشفى الملكي المصري

قضايا العصر

في ضوء الإسلام

تأليف

الأستاذ أنور الجندي

السنة الثالثة — الكتاب الثامن والثلاثون

١٥ من شعبان ١٣٩١هـ — أكتوبر ١٩٧١م

سلسلة البحوث الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

« ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك

عن بعض ما أنزل الله إليك »

صدق الله العظيم

تقديم

لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم المرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداهم إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن الإسلام رسالة الله الخاتمة لهداية البشر إلى ما تصلح عليه دنياهم وتسعد به أخراهم ، فهو منهج حياة مثلى يتجاوب مع الإنسان فردا وجماعة ، فى كل بيئة وفى كل عصر ، لا يتأبى ولا ينافر ، يأخذ الإنسان فى بشريته أخذاً رفيقاً متوازنا ، لا يطغى فيه عنصر من عناصر تكوينه على آخر .

وإذا تناول الإنسان - أى إنسان .. هذا الدين الخاتم تناولا معتدلا ، لا شوب فيه لغرض ، ولا ميل معه لهوى ، فإنه يخرج بنتيجة لا معدى عنها .

تلك هى : أن هذا الدين هو دين الإنسانية بأشمل ما تعنى هذه الكلمة من دلالات ، وحبذا لو كان الأمر على هذا النحو ، وهو ما يجب أن يكون .

لكن العصبية المذهبية والعقدية تعمى وتصم ؛ بل تدفع إلى المعاندة والتضليل، ثم تتعدى هذا النطاق إلى الحرب الضروس .

من أجل هذا واجه المجتمع الإسلامى ألواناً من التحديات ، وبخاصة فى عصرنا الذى اتخذ من الثقافة أمضى سلاح للغزو وأفعله؛ فوقع تحت ضغوطه ، وعنفها كثير ممن ينتسبون إلى العلم والمعرفة من أبناء جلدتنا فى غمرة الدعاية الصاخبة ، وغيبة الإيمان الرشيد .

ونحن نعاصر هذه الألوان ، ونشاهدها ، ويلفحنا جمها .

وكتاب « قضايا العصر فى ضوء الإسلام » لمؤلفه : الأستاذ (أنور الجندى) يقدم هذه القضايا التى تشغل الأفكار ، ويناقشها مناقشة جادة ومستوعبة، منبها مفكرى المسلمين أن يتوقوا المخاطر التى تجتاح أفكارهم ابتغاء تدمير مجتمعاتهم ، وقد أتاح الله لهم فرصة مجاوزة الوصاية ، وصرف عنهم محنة التبعية للنفوذ الاستعمارى ، وأصبحوا قادرين على اكتشاف ذواتهم وبناء أنفسهم ، مع منطلق العلم والإيمان . . .

والله الموفق والهادى إلى أقوم سبيل ؟

د . محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

مدخل إلى البحث

يواجه المجتمع الإسلامى اليوم قضايا متعددة فرضتها عليه تحديات العصر والحضارة ، وخاصة فى مجال الإنسان والمجتمع .

وتتصل هذه التحديات بالعقائد من حيث الإيمان والإلحاد ، وتتصل بالنفس الإنسانية من حيث التقوى والإباحة .

وتمتد هذه القضايا إلى الفروق الواضحة بين الدين والعلم ، وبين العلم والفلسفة ، وبين علاقة الإنسان بالأخلاق والفنون والآداب .

وهناك قضايا الموت والبعث والجزاء والمسئولية الفردية .

ولقد ألقت إلينا الفلسفة المعاصرة وجهات نظر متعددة فى هذه القضايا ، وحملت دعوات الغزو الثقافى والقوى الاستعمارية ، هذه الآراء والنظريات بهدف واضح .

ونحن إزاء هذه المحاولات على رأى واضح محدد ؛ هو أن لكل معضلة من هذه المعضلات أو قضية من هذه القضايا ، حلولا مختلفة ونظريات متعددة تختلف باختلاف الأمم والشعوب التى تستمد مفاهيمها من قيمها ومعتقداتها وتراثها الحى .

ونحن إزاء هذه المعضلات أمام نظريتين :

نظرية غربية تمثل فكر الأمم التى واجهت هذه القضايا .

ونظرية ليست عالمة ولا عالمية ، ولا يمكن تطبيقها على النفس الإنسانية بعامة ، ولا على المجتمعات المختلفة ، وتكاد تكون نظرية خاصة : انبعثت من تحديات تلك المجتمعات ، وعقليات فلاسفتها .

وما من قضية من هذه القضايا (فى الاجتماع والسياسة والأخلاق والاقتصاد والتربية) إلا ولنا نحن المسلمين فيها نظرية ومنهج ، نظرية أصيلة ومنهج شامل ، يهدى إلى الحق فيها ، هذا الحق المستمد من :

١ — أصول الإسلام الذى قدم للبشرية منذ خمسة عشر قرنا منهجا متكاملا للفكر والحياة والمجتمع والحضارة .

٢ — ومن منهج القرآن الذى أهدى للإنسانية حلول الفطرة البشرية والأصالة الربانية .

فنحن فى كل مجال وموقف علينا أن نسأل عن نظريتنا ومنهجنا : إن النظرية الغربية الوافدة هى من صنع قوم آخرين ، أقاموها على مقياس مجتمعهم ، وابتدعوها فى ظل تحدياتهم الواقعية

والتاريخية جميعا : هـذه التحديات التى دفعتهم إلى الانفصال عن مناهج الأديان بل ومعارضتها .

* * *

لقد جاءت تبعية المسلمين والعرب للفكر الغربى فى ظل تحديات واضحة ، ومن خـلال الاستعمار والسيطرة التى فرضها النفوذ الأجنبى على التعليم والصحافة والثقافة ، ومن خلال محاولته خلق أولياء لثقافته ، هم عملاء له فى نفس الوقت ، ولم تـكن هذه التبعية اتجاها طبيعيا من المسلمين والعرب ، ولا رغبـة أصيلة منهم ، وإنما كان ذلك قسرا وغصبا .

ولقد كان الفكر الإسلامى دائمـا متفتحا لثمرات الفـكر البشرى ، ولـكنه كان قادراً حتى فى أشد مراحل الضعف والتخلف على المدافعة عن ذاتيته ، والحيلولة دون انصهاره فى الفـكر العالمى ، ذلك لأن مقوماته الأصيلة وقيامه أساساً على « التوحيد » حال دائمـا دون هذا الانصهار ، وهذا الاحتواء الذى فرضه الغزو الخارجى عليه . ومن خلال حملتين من أضخم حملات الغزو هما :

الحروب الصليبية ، والاستعمار الغربى والصهيونى الحديث ، الذى وصل فى السنوات الأخـيرة إلى أقسى مراحله باحتلال الصهيونية بيت المقدس ، وفرض وجودها على الأمة العربية ،

من خلال هاتين الحملتين كان الفكر الإسلامى قادراً على تصحيح مساره الفكرى ورد عادية تزييف قيمه ومفاهيمه .

فعلى مفكرى المسلمين والعرب اليوم أن يتنبهوا إلى هذه المخاطر التى تجتاح فكرهم ومجتمعهم ، من الاستسلام للمذاهب والفلسفات المادية التى هى فى حقيقتها سلاح من أسلحة الصهيونية العالمية لهدم الأمم وتدمير مقومات الشعوب .

وأهم هذه الأخطار ، أخطار الفلسفة اليونانية الوثنية التى تحاول الصهيونية اليوم إعادة صياغتها فى نظريات متعددة حول العقيدة والنفس والأخلاق تستهدف بها إذاعة الإلحاد والإباحية، وتحاول من خلالها تدمير مقومات المسلمين والعرب وتخريب مجتمعاتهم .

ونحن اليوم قد جاوزنا مرحلة الوصاية ومرحلة التبعية للنفوذ الاستعمارى وأصبحنا قادرين على كشف الدخائل وتحرير القضايا، ونجدنا على أبواب مرحلة الرشد الفكرى القادر على اكتشاف الطريق ومعرفة الأخطار وتبيين الدوافع والخافيات التى تحاول حجبنا عن جوهر فكرنا وأصالة مضامينه وقيمه .

ولكن على ثقة بأننا لن نستطيع أن نحرر وجودنا إلا إذا حققنا وجودنا من خلال فكرنا وتحركنا من داخل قيمه

ومفاهيمه ومقوماته . لا من داخل قيم ومقومات متمثلة في الفلسفات المادية .

إن لكل نظرية عوامل ضعفها وقوتها ، والحقيقة لابد أن تظهر ولو أخفاها بريق الصياغة ، وخداع الطابع العلمي الزائف.

ولابد أن تواجه النفس الإسلامية العربية فطرتها وأصالتها، وأن تلتقي مع المناهج والحلول التي قدمها إليها الإسلام في مختلف القضايا والمعضلات ، هذه المناهج القادرة على إعطاء البشرية هداها ونورها ، وكشف ما تواجهه من قلق وضياع وغربة مما يردده دعاة الفلسفات المادية .

تلك هي غاية هذه المحاولة في إلقاء أضواء الإسلام على قضايا العصر والإنسان .

---

(١)

حقائق أساسية

هناك عدة حقائق أساسية لا بد من الإلمام بها عند مواجهة قضايا العصر في ضوء الإسلام

(الحقيقة الأولى) أن لكل أمة مزاجها النفسي وذاتيتها الخاصة القائمة على أساس من عقائدها وقيمها وآدابها ومفاهيمها التي عاشت عليها منذ ألوف السنين، وأن هذه الأمة حين تواجه أي قضية من القضايا أو حدث من الأحداث أو موقف من المواقف إنما تستمد استجابتها إزاءه من هذه المضامين.

(الحقيقة الثانية) أن العرب والمسلمين لهم أيدلوجيا أساسية في مجال النظرة إلى الكون والحياة والله والإنسان والمجتمع، هذه النظرة مستمدة أساسا من القرآن الكريم ومن تطبيق نبي الإسلام ورسوله في حياته وبيانه.

ومن منطلق واضح محدد قوامه:

١ - أن الإسلام هو خاتم لرسالات السماء، جاء امتدادا لها،

وخاتما وناسخا لها ورسالة إلى الإنسانية كافة .

٢ ـ أن القرآن هو النص الموثق الذى لم يصبه أى تحريف ، كتاب الله المنزل بالحق ، الذى أعطى البشرية منهجا كاملا للحياة والمجتمع والأخلاق وعقيدة ناصعة قوامها التوحيد .

(الحقيقة الثالثة) ان الفكر الإسلامى إنما قام أساسا منستمدا من القرآن والسنة الصحيحة وأنه استكمل نهجه قبل أن تنتقل مترجمات الفلسفات الشرقية والغربية ، وأنه فى مواجهة هذه الفلسفات ظل قادرا على الاحتفاظ بذاتيته ومقوماته ، وأنه أنشأ منهجه فى الفكر ونظامه فى الحياة .

(الحقيقة الرابعة) أن الفكر الإسلامى قد أقام منهجا فكريا مستقلا يختلف اختلافا جذريا عن مختلف مناهج أفكار الأمم وفلسفاتها وعقائدها .

وأنه أقام منهج المعرفة الإسلامى على أساس عقلى وروحى معا ، فجعل للعقل منطلقه فى مجال العلوم والمحسوسات ، وجعل للروح منطلقها فى مجال الغيبيات وما وراء الطبيعة .

وأن الإسلام أقام تيولوجيا خاصة به تختلف عن نظرية اليونان ومناهج الأديان القديمة وفلسفاتها .

(الحقيقة الخامسة) أن هناك مؤامرة دائبة مستمرة لغزو الفكر الإسلامى وإخراجه من قيمه ومناهجه ومحاولات لتدمير مقوماته وإدخال مفاهيم أخرى للقضاء على استقلاليته وذاتيته وإذابته فى الأممية العالمية .

وأن المسلمين قد واجهوا مثل هذا الغزو على فترات متوالية من تاريخهم ، حين حاولت الفلسفة اليونانية الإلهية الوثنية، وحين حاولت المجوسية والباطنية ، وفلسفات الغنوصية الشرقية إخراجه عن مقوماته .

وقد جاهد الفكر الإسلامى ذلك جهاداً صابرا تكلل بالظفر دائما ، واليوم يواجه الفكر الإسلامى غزوا جديدا أشد ضراوة ، فى محاولة الفلسفات الغربية إخراجه من مقوماته وتدميره ، وذلك بمحاولة فرض مذاهب فلسفية فى مجال النفس الإنسانية والألوهية والبعث ووجود الذات ، تعارض تماما قيمه الأساسية وتشكل ببريقها الخادع وزيفها المسبوك أثراً فى العقول الحدثة والأذهان المتطلعة .

(الحقيقة السادسة) الواقع أن هناك حربا تشنها القوى الاستعمارية والالحادية والصهيونية على مقومات الفكر الإسلامى

باعتباره آخر الحصون التى تثبت للمقاومة فى وجه الغزو السياسى والاقتصادى والاجتماعى .

فإن هناك محاولة دائبة لإخراجه من مقوماته ، وتزييفه بالإضافة إليه أو تحويره عن مناهجه ، أو التشكيك فيه وإثارة الشبهات حوله .

وهناك أدلة متعددة ووثائق أكيدة حول هذا الخطر ، والمخططات التى رسمت لهذا الغزو ، وقد سجلت ذلك بروتوكولات حكماء صهيون فى أكثر من موضع ، كما ورد فى عشرات من المؤلفات والتقارير والمخططات .

(الحقيقة السابعة) أن الاستعمار حين سيطر على العالم الإسلامى إنما كان يستهدف تفريغ الذات العربية الإسلامية من مقوماتها النفسية والروحية والاجتماعية المنبثقة عن الإسلام ، وكانت أولى مخططات هذا التفريغ هى تزييف مناهج التاريخ والتراث واللغة العربية والفقه الإسلامى ، وطرح نظريات ومناهج ومفاهيم غربية عديدة فى مجالات الأدب والاقتصاد والسياسة والاجتماع ، وبالرغم من أن هذه النظريات لها جذورها فى الفكر الإسلامى فإنها عرضت على أنها نتاج خالص للفكر الغربى ،

فضلا عن أنها لم تعرض كوجهة نظر غربية ، وإنما عرضت على أنها من ثمرات الفكر العالمي أو آخر مقررات العلم .

والواقع أنها :

أولا : ليست علما ولكنها فلسفة وفرق كبير بين العلم والفلسفة .

ثانيا : أن لنا نحن العرب والمسلمين نظرية وللغرب نظرية في مختلف هذه القضايا سواء اتصلت بالنفس أم بالاجتماع أو سائر جوانب المعرفة الإنسانية .

ومعنى هذا أن الاستعمار كان يعمل أساسا على تفريغ الأمة العربية والعالم الإسلامي من محتواهما العقدي وذلك حتى يجعلهما مؤهلين ليقتل مفاهيم أخرى ، تغطي الحاجة في دائرة النفس والعقائد والمجتمع ، فإذا جاء هذا الجديد لم يجد حصانة تحول دون تقبله ، ولم يجد معرفة تفهمه وتكشف زيفه أو تعطي القدرة على المقارنة بين تبعيته وأصالة النهج العربي الإسلامي في الموضوع نفسه .

(الحقيقة الثامنة) ولذلك فإن أهم ما يجب علينا أن نعرفه هو أن هناك نظريتين في مختلف هذه المجالات - مجالات النفس والعقائد والاجتماع :

* نظرية عربية إسلامية أصيلة مستمدة من قيمنا وتتفق مع ذاتيتنا ومزاجنا النفسى وقائمة على طوابعنا الجامعة بين الروح والمادة والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة .

* ونظرية غربية قامت فى بلادها واستمدت مقوماتها من قيم فكرها ووجودها الاجتماعى أو النفسى الخالص .

(الحقيقة التاسعة) أن الفكر العربى يرفض النظريات الوافدة فى مجال النفس والاجتماع والثقافة ولكنه يقبلها فى مجال العلوم والحضارة ، ذلك لأسباب عميقة بعيدة المدى ، أهمها :

قيام المجتمعات العربية والإسلامية أساسا على الترابط بين الدين والمجتمع وقيام مناهجها على أساس أخلاقى دينى وكون الإسلام دين ومنهج حياة ، وكون نظرية المعرفة الإسلامية ذات جناحين مادى وروحى ، عقلى ووجدانى . بينما تصدر هذه النظريات من دائرة الغرب فى مواجهة تحديات مجتمعاتها .

(الحقيقة العاشرة) أن استجابة المجتمعات العربية الإسلامية لهذه النظريات الوافدة ليست استجابة أصيلة ، وإنما هى تحدث تحت تأثير إغراء البريق ، وعقدة النقص وتقاليد الغالب ، وفى ظل الفجوة الحادثة من نقص المعرفة الأصيلة بمناهج فكرنا ومقوماته .

(٢)

أخطار تهدد النفس الإنسانية

إن هناك ثلاثة أخطار تهدد النفس الإنسانية قوامها الفلسفة المادية :

أولا - الإلحاد فى مواجهة الإيمان والهجوم العاصف على العقائد والأديان والنظرة المضطربة إزاء الألوهية والبعث، ومحاولة إنكار الغيبيات إنكاراً تاما وقصر النظرة والمعرفة على المحسوسات .

ثانيا - إعلاء الغريزة واعتبارها مصدراً أساسيا لكل تصرفات الفرد الإنسان ، والدعوة إلى إطلاقها والتحذير من أخطار ما يسمى بالكبت والأمراض النفسية .

ثالثا - تأكيد الذات وتحقيقها بحرية التصرف دون تقدير للضوابط التى تحفظ كيان الفرد ، أو الحدود التى تحفظ علاقات الأفراد وذلك فى مواجهة ما يسمى خطر الموت أو الحروب الذرية .

هذه أبرز مفاهيم النظريات العصرية التى تواجه مجتمعاتنا وفكرنا العربى الإسلامى والتى صدرت عن المجتمعات الغربية فى ظل التحديات المختلفة التى تواجهها تلك المجتمعات والتى تقوم أساسا من داخل الفكر الغربى وفى طريق تطوره وانطلاقه .

وهى نظريات طبيعية بالنسبة لها لأنها مرتبطة بتاريخه وعقائده وبالأرضية الإغريقية التى ابتعثتها الحضارة الحديثة والتى لا تجد فى طوابع التحلل والإباحة أمراً غريبا عليها بل امتداداً طبيعياً للحضارتين الإغريقية والرومانية .

بل إن الأصول التى تقوم عليها هذه النظريات إنما هى مستمدة أساسا من الأساطير اليونانية والإغريقية القديمة .

أما العقل العربى الإسلامى وأما النفس العربية فإنها لا تقبل هذه النظريات وترفضها وتراها متعارضة تماما مع مفاهيم الفطرة التى فطر الإنسان عليها .

فالإنسان بطبيعته متدين ، أخلاقى ، ولقد جاء الإسلام فأقام منهجا فكريا جامعا بين العقل والقلب والروح والجسد ، موافقا تمام الموافقة لطبيعة الإنسان ولفطرته .

فالإنسان أساسا روح وجسد ، وكل منهج عقائدى ونفسى لا يقوم على الترابط والامتزاج بين الروحى والمادى فى الإنسان بالوحى والبصيرة من ناحية وبالعقل والعلم من ناحية أخرى .

أما الفلسفة المادية تضاد مفاهيم الفطرة والدين وذلك لأنها تنتزع الجانب الروحى من قيم المعرفة وتقتصر على الجانب المادى .

أما نظرية المعرفة الإسلامية فهى لا تعلى جانبا على آخر ولكنها تربط بهما وتوازن مستمدة ذلك من تركيب الإنسان نفسه .

والفلسفة المادية تقدم للإنسان نظرية مخالفة للفطرة والمتنزلات السماوية ،ولا شك أن هدف هذه النظرية أساسا هو هدم الشخصية الإنسانية وتحطيم مقوماتها .

وبذلك تستطيع القوى التى تدفع هذه النظريات أن تسيطر على الأمم والمجتمعات .

وذلك هو الخطر الكامن وراء تضاد هذه النظريات للفطرة ولطبائع الأمور وللمفهوم الإنسانى الأصيل الذى جاءت به الأديان وعرفته البشرية طويلا وأقامت حياتها ومناهجها عليه .

إن هدف الفلسفات المادية أساسا هو هدم الإنسان من داخله وتفريغه من عقائده وإيمانه الراسخ عن طريق نظريات ذات طابع براق وقوالب علمية لا تثبت أمام الحقيقة .

وليست نظرية المادية والحسية والوجودية جديدة .

وليست هى خلق قدمته عقول مستحدثة ، ولكنه انبعاث لفلسفات قديمة عرفتها اليونان والإغريق وعرفته المجوسية الفارسية والقنوصية الشرقية.

وقد مضى وقت طويل على هذه الفلسفات وقد ازدرتها البشرية بعد أن تقدمت خطوات واسعة فى ضوء التوحيد والعقل والإيمان ، ولكن هذه القوى الضاغطة لم تلبث أن ابتعثتها من خلال الأساطير والوثنيات، وجددتها وصاغتها فى أسلوب العصر، وأحكمت إخراجها فى جو علمى ، وحاولت أن تخدع النـــاس بأنها علم ، وبأنها حقائق .

ومع أن كل الحقائق العلمية والمختبرات المعملية ، والحقائق الجديدة التى كشف عنها تفتت الذرة .

هذه الحقائق العلمية التى أخذت تقرب من مفاهيم الأصالة وتكشف عن وجود الله وعن توازن الإنسان وعن وجود الغيب ، بالرغم من هذا فإن الفلسفة المادية التى تحتضن دعوات الإلحاد والإباحة إنما تسيرها قوى ضاغطة ونفوذ فكرى خطير، قادر على أن يدفع هذه النظريات ويذيعها ويؤكدها فى النفوس ويدخلها فى مناهج الدراسات والجامعات .

إذن فليس العلم هو الذى صدرت عنه تلك النظريات ولكنها الفلسفة التى تحاول أن تسمى نفسها علماً .

إن العلم نفسه يقترب من الحقائق التى جاءت بها الأديان، ويقر بوجود عالم الغيب ، ولكن الفلسفة المادية هى التى تعلى من نظريات إعلاء الغريزة وإنكار الغيبيات والهجوم العاصف على الألوهيات ، وتدفعها إلى الأمام فى قوة ، وتمدها بالنفوذ والسلطان .

تلك هى القوة الاستعمارية التى تطمع فى تدمير المجتمعات وإنسانية الإنسان لإتمام سيطرتها وإحكام نفوذها .

(٣)

أضواء على التغريب

هناك أضواء لا بد من إلقائها على تيار التغريب والغزو الثقافى المتدفق فى وجه الإسلام والفكر الإسلامى والثقافة العربية، هذه الأضواء قد تضع كثيراً من النقط على الحروف وتكشف الحقيقة الخفية وراء الدعوة إلى اعتناق مفاهيم الغرب :

(الضوء الأول)

يرويه الدكتور مندور عن نتيجة دراساته فى أوروبا عن ماذا يقول الأساتذة الغربيون للطلاب من العرب والمسلمين :

يقول قال أستاذهم : « إن مبادىء الأخلاق إن هى إلا ظواهر اجتماعية تملى على الأفراد دون أن يكون لهم دخل فى بنائها أو فضل فى الإيمان بها ، إن إرادة الإنسان الحرة التى يعتز بها ليست إلا وهما ، لأن المرء لا يملك لنفسه شيئا وإنما هو مسير بغرائز وقوى » .

ورجع الدكتور مندور إلى الرجل العجوز صاحب المنزل الذى يقطن فيه ، ليعيد عليه ما سمعه وهو يستغربه .

قال له الرجل العجوز : « هل تظن أن هذه الآراء التى سمعتها من الأساتذة فى علم الاجتماع وعلم النفس صحيحة ؟ ، أتظن أن حقائقنا البشرية من اليسير بحيث تصبح نظريات أو يكشف عنها التفكير المجرد ؟ .

يا بنى : إن التفكير الأوربى يمثله ذلك النفر من اليهود الذين يزعمون أنهم اكتشفوا قوانين الإنسان عند ما زعم (دوركايم وليفى بريل وموسى وفوكونيه ومن تبعهم) أن الإنسان حكمه حكم المادة ، وأن هناك ما يسميه هؤلاء وعيا اجتماعيا تتمخض عنه الحياة العامة ، كما يتمخض الناتج الكيماوى عن مزيج من العناصر ، احذر يا بنى أن توقن بما يقولون ، فليس صحيحا أن الرجل المهذب لا يستطيع أن يصل إلى قيادة شخصية يهتدى بها إلى مواضع الخير والشر والبطولة والخسة بنفسه ، كما تهتدى الطيور إلى أوكارها .

وليس صحيحا أن قواعد الأخلاق ليست إلا ظواهر اجتماعية لا نستطيع فى علاجها شيئا ، وكل ما يجب علينا عمله هو أن نرصدها كما يفعلون لنستخرج منها قواعد عامة .

هذا يا بنى وهم بل خداع مبطلين .

ثم ذكر أننا فى مجال المعرفة بالإنسان ، ليس لنا إلا هدف واحد هو أن نصبح خيراً مما نحن .

أنا أفهم أن نكشف عن قوانين المادة لنسيطر بها ونسخرها فى مرافق حياتنا ، ولكن الإنسان ما شأنه بالقوانين ، من قال إن الإنسان مادة فحسب ، وهب أنه مادة وأن الروح لم يكن لها وجود، وأن تفنى بفناء المادة ، كما تنعدم النغمات ، أليس من الخير بل من الواجب على الإنسانية أن ترفض علما كهذا ، لن ينتهى إلا بتحطيم حياتنا وشل إرادتنا» .

هذا ما أورده الدكتور محمد مندور عن تجربته فى التعليم الأوربى (راجعه بالنص فى مجلة الرسالة مجلد ١٩٤٤ ص ٨٨٣) .

(الضوء الثانى)

ما أورده الدكتور منصور فهمى عن تجربته فى أثناء بعثته التعليمية فى أوربا عند ما أغراه (ليفى بريل) الأستاذ اليهودى المشرف على الأطروحه فى أن يكتب عن (حالة المرأة فى الإسلام) ويعرض من وجهة نظر الغزو الثقافى عن زوجات الرسول .

يقول فى اعترافه فى أواخر حياته :

« الشكوك الدينية قد عرضت لى فى عهود الشباب ، أثناء إقامتى فى أوربا لطلب العلم ، وقد نشأت هذه الشكوك نتيجة التفكير وطلب الحقيقة ، ولم تكن - علم الله - عن تصنع أو هوى أو نزق ، ولم تكن على الطريقة التى يتظاهر بها بعض الأدعياء ،

حينما يريدون أن يتخذوا سمت الفلاسفة أو العباقرة من المفكرين والباحثين ، فيظنوا خطأ أن ذلك يستلزم الظهور بمظهر الشك والحيرة والطعن على المقررات والمعارضة للمألوف (يقصد بعض زملائه فى البعثة التعليمية) .

وأحمد الله فإن هذه الشكوك التى حيرتنى وأضنتنى حينا من الزمان - حيث استمرت قرابة ثلاثة أعوام - كانت وسيلة إلى الاطمئنان ، ومفتاحا لقوة الإيمان ، وقنطرة إلى ثبات اليقين ، فقد انتهيت من شكى الدينى ، وحيرتى الروحية إلى نتيجة حاسمة واضحة هى :

« أن القيم الرفيعة والأصول الأولى التى صقلتها الأزمان وارتقتها الأديان هى أولى الأمور وأحقها بأن تكون الدعائم القوية التى نعتمد عليها فى مسالكنا خلال الحياة » .

* * *

هذه الأضواء تكشف مدى خطر التماس النظريات الغربية المادية دون أن يكون هناك سناد من التربية الدينية الحقة ، أو فهم الإسلام فهما صحيحا ليكون عاصما لنا من الخلط بين وجهة ووجهة ، وجهة قوامها الإسلام والتوحيد وهدى الوحى والنبوة وسلامة الإنسان وحماية نفسه وجسده وروحه من الانهيار ،

وبين وجهة أخرى تعتمد أساسا على نظرية يونانية إغريقية وثنية مضطربة وهنا يجيء دور الضوء الثالث الذى نقدمه فى ظل التأمل الواعى.

(الضوء الثالث)

« الفيلسوف اليونانى (سقراط) هو الذى استطاع أن يترك ظله العميق العنيف على كل الحضارة الغربية ، فقد كان سقراط رجلا دميما ، ولم يكن رجلا بالمعنى الحقيقى ، وقد استولى الشذوذ الجنسى على الحضارة الإغريقية كلها مئات السنين ، ولم يكن يستنكره أحد ، واستطاع « سقراط » بذكاء وخبث أن يفرض احتقار الجسد الإنسانى ، سواء جسد الرجل أم جسد المرأة ، واحتقار كل ما هو حسى ، ولأن سقراط كان يرى أن المرأة هى حس فقط ، وجنس فقط ، فقد استبعدها من دنيا الحياة العقلية ورأى أن المرأة والجسد والحس شرور يجب أن يتخلص منها الإنسان، ووراء (سقراط) وتحت تأثيره الهائل سارت الفلسفة والآداب والمسيحية (الغربية) أيضاً حتى يومنا هذا »[1] .

هذه الأضواء الثلاثة تستطيع أن تكون خطا صريحا واضحا للباحث لكى يقف من قضايا العصر موقف اليقظة إزاء وجهى النظر المختلفة والمتباينة بين رأى الإسلام ورأى الفلسفة الغربية فى الإنسان والنفس والأخلاق جميعا .

---

(١) بالنص من كتابات الأستاذ أنيس منصور .

قضايا العصر (١)

القضية الأولى

الإسلام والعلم

إن أخطر ما توجهه النظريات الفلسفية إلى العصر : النظرة المادية وإلغاء ما غير المحسوس ، ومهاجمة الغيب ووصف النظرة الدينية عامة بأنها نظرة غيبية أو سلفية تتعارض مع التقـــدم والتحرر والحضارة .

وتتشكل حول هذا المفهوم نظريات متعددة معروفة بأسمائها وأصحابها وكلهـا سواء أكانت نفسية أم اجتماعية تقيم أرضيتها على أساس :

١ — إنـكار الدين بصفة عامة .

٢ — إنـكار الغيب .

٣ — إنـكار الله الحق .

٤ — اعتبار أن العالم مادى سرمدى خلق نفسه .

والواقع أن هذه النظرية كانت أول الأمر من فرضيات العلم فى القـرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر الميلاديين وقـد كانا كذلك نتيجة لتحد خطير واجه العلم فى أوربا هو معارضة حملة الدين له والتعصب ضده وقتل أعلامة .

ومن هنا نشأ ذلك الخلاف الحاد بين العلم والدين ، أو فى الحقيقة بين رجال العلم ورجال الدين .

وقد مضى العلم فى طريقه فحقق كثيرا من النتائج وما يزال يمضى فى طريقه ، ونتائجه الأخيرة التى نراها الآن ونقرأها ، وخاصة بعد انفلاق الذرة تكشف عن تحول خطير ، واختلاف واضح عن النظرة القديمة ، فقد تقارب العلم الآن مع مفاهيم الدين الصحيح ، وخاصة فى الاعتراف :

١ — بعالم الغيب .

٢ — بوجود قوة مسيطرة تدبر الكون .

٣ — بأولية ونهاية هذا العالم المادى .

ولا شك أن هذه النتائج التى وصل إليها العلم قد كسرت ذلك القيد الذى سيطر طويلا على العلاقة بين الدين الصحيح والعلم .

أما حملة ألوية النظرة المادية الآن فليسوا هم العلماء ولكنهم بعض الفلاسفة ، ولم تعد النظرة المادية نظرة علمية بل هى نظرية فلسفية تلبس ثوبا علميا ومن ورائها قوى كثيرة تحركها وتدفعها وأهداف بعيدة المدى ترمى من ورائها إلى السيطرة وتوطيد النفوذ الاستعمارى والسياسى .

وليس الخطر فى النظرية الفلسفية نفسها ولكن الخطر

فى النفوذ الاستعمارى الذى يروج لها، ذلك لأن كل نظرية تستطيع أن تثبت بقدر ماتحمل من عناصر البقاء ، وهى تسقط إذا لم تكن مطابقة لأصول العلم والفطرة الإنسانية .

ولكن هذه النظريات التى تروج رواجا كبيرا حول العقائد والنفس الإنسانية والوجود الفردى إنما هى نظريات سقطت فى البيئات التى ظهرت فيها وهى منبثقة منها أساسا وفى ضوء تحديات تلك المجتمعات ، وكان سقوطها عن طريق العلماء والفلاسفة الذين صححوا اتجاهها وعدلوا من غلوائها .

ولكن القوى التى تحمل لواء التخريب والاستعمار قد حجبت تلك النظريات المصححة ، وأعلت هذه النظريات المضطربة ، ورتبت لها شهرة زائعة وانتشارا فائقا عن طريق قدراتها الإعلامية فى ميادين النشر وقواها ودعاتها فى كل مكان .

ونحن نعرف أن خطر نظرية (دارون) ليس فيما قاله (دارون) ولكن فيما قاله (سبنسر) وغيره ممن حولوا نظريته التى قصرها على ميدان الأحياء والأجناس إلى نظرية اجتماعية وسياسية عامة .

وكذلك ليس الخطر فيما قاله (فرويد) فإن زملاءه (ادلر، يونج) عارضوه فى نظرته إلى الجنس وعدلوا نظرية التحليل النفسى

تعديلا مقاربا لأصول الأشياء ولكن سقطت هذه الآراء وذاعت آراء (فرويد) وحدها وسيطرت على الأدب والاجتماع جميعا .

ويبدو ذلك واضحا من مراجعة سريعة لبروتوكولات حكماء صهيون حيث تقول الفقرة :

« نحن الذين رتبنا » .

إذن فهناك عوامل أخرى وراء النظرية الفلسفية المحضة ، التى قد تسقط علميا إذا ما انكشف أنها لم تحقق نتيجة صحيحة أو تصدر عن تقدير مضبوط .

وهذه النظريات الفلسفية هى أشبه بالأزياء ، فى تحولها وتغيرها وتجددها خضوعا للعصور والبيئات واختلافا مع القائلين بها وتحدياتهم النفسية والاجتماعية .

ومن هنا وجبت ضرورة التفريق بين العلم والفلسفة ، فالعلم هو الحقائق المعملية الثابتة والفلسفة هى الفرضيات العقلية فى مجال النفس والمجتمع .

وقد تقرر فى نظر العلماء والباحثين منذ وقت بعيد أن العلم هو مجموعة المعارف المتعلقة بالفيزياء والكيمياء والاحياء وهى العلوم الطبيعية .

أما الدراسات التى تجرى فى الحقول الإنسانية والبشرية كالاجتماع والسياسة والتاريخ والنفس والتربية فهى علوم فلسفية من حيث

أنها تخضع لأسلوب علمي ولكنها وهي تتصل بالنفس الإنسانية التي لا تقاس بمقاييس المادة ، ولا تخضع للأنابيق وأنابيب الاختبار ، ذلك أن النفس الإنسانية شيء قائم بذاته لا يدرس دراسة معملية ، ولكنه يدرس من نواحي أخرى تكشف عن ظواهره في بيئته وفي عصره ، ولا تستطيع هذه الدراسة أن تنطبق على بيئة أخرى أو عصر آخر ، وأن الإنسان ليس كالحيوان الذي تجرى عليه التجارب وأن هذه التجارب لا تنطبق تماما على الإنسان الذي يمتاز بين الكائنات البشرية بالعقل والإرادة .

وأن وضع الإنسان تحت مختبرات معملية محددة هي مسألة عسيرة كل العسر ولا تستطيع أن تحقق نتائج مضبوطة أو صحيحة .

ولذلك فقد أكد العلماء بأن دراسة سلوك الإنسان ونشاطه هي من الأمور العسيرة التي لا تخضع للمختبرات العلمية وأن ما يمكن الوصول إليه منها سيظل عاملا مساعداً لإلقاء الضوء أو التوضيح ولكنه لا يستطيع بالحق أن يقرر حقيقة ما تقريراً علميا كما تقرره الأنابيق بالنسبة للمختبرات المادية .

وهذا هو الفرق بين الإنسان والحيوان والمادة .

(٢)

أجمع العلماء فى شبه رأى موحد على أن العلم لا يستطيع أن يقوم بمهمة تفسير ظواهر الأشياء وتعليلها ولكنه يقتصر على وصفها وتقريرها، فمهمة العلم قاصرة حتى الآن على وصف ظواهر الأشياء، وقد كان العلم فى أزهان الأوائل إنما يراد به تفسير الوجود، وكان العلماء فى أول النهضة يهتمون بمعرفة (لماذا) ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد أن تبين لهم عبث هذه المحاولات وعقم نتائجها. فقد ترك العلم للفلسفة مهمة بحث العلل النهائية للوجود بعد أن عجز فى هذا المضمار ولم يسفر بحثه عن شىء.

والعلم لا يفسر شيئا وإنما يربط وينسق ويلاحظ ملاحظة منهجية وبالتالى يضيف ويقرر وليس هذا فهما للأشياء ولكنه تعرف عليها، ويقرر العلماء أن المعرفة العلمية تقتصر على ظواهر الطبيعة وأعمال البشر وعلاقاتهم التى يمكن استخدام المشاهدة والتجربة لاكتشاف قوانينها، والعلم يعترف بأن العقل البشرى لا يستطيع أن يدرك شيئا إلا عن طريق الحواس ولذلك فكل ما يقع وراء الحس أو العقل لا يمكن للعلم أن يبحث فيه أو يعرف عنه شيئا.

وليست حقائق العلم مطلقة وأبدية بل هى تقرر الحقيقة

النسبية والبحث العلمى صراع لا ينتهى بين الإنسان والطبيعة فكلما ازداد الإنسان معرفة لقوانين الطبيعة ازدادت سيطرته عليها، وما يزال العلماء يتساءلون : هل يستطيع العقل أن يدرك الحقيقة ،

لقد قطع أشواطا طويلة خلال ثلاثمائة سنة ، فهل استطاع التوصل إلى الحقيقة؟ .

ويكون الجواب : أن العلم حتى الآن رغم تقدمه فى ميادين مختلفة قد عجز عن حل المشاكل الكبرى المتمثلة فى أصل الكون ونهايته وطبيعة المادة ومنشأ الحياة وخلود الروح.

يقول : (مارتين ستانلى كونجدن) :

إن نتائج العلوم تبدأ بالاحتمالات وتنتهى بالاحتمالات . وليس باليقين ، ونتائج العلوم بذلك تقريبية ، عرضة للأخطاء فى القياس والمقارنات ونتائجها اجتهادية وقابلة للتعديل ، بالإضافة والحذف وليست نهائية ، وقد اضطر العلم منذ أجيال أن يترك البحث فى كنه الأشياء بعد أن تبين له أنه لا سبيل إلى معرفة الكنه المغيب عن الحواس واكتفى بدراسة ظواهرها .

ولا شك أن اتخاذ المادية الصرفة أساساً للعلم وانفصالها عن عالم الغيب قد كشف عن عجز العلم عن فهم كنه الأشياء .

ويقول (رسل تشالزوارنست) : « إن كل الجهود التى بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذ لان ذريعين ، ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة يمكن أن يؤدى إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التى شاهدناها فى الخلايا الحية » .

غير أن انفلاق الذرة قد خلق عصراً جديدا فى العلوم لا شك أنه مؤشر واضح إلى اتجاه جديد :

يقول العلامة هايدين فى كتابه « المادية » .

« ماتت النظرية المادية بالنظرية القائلة بأن الذرات مركبة من الكهرباء وبروتونات موجبة والكترونات سالبة ، وطغت عليها نظرية (الكوانتوم) التى تقول إن الكهربائية تجىء شحناتها من المجهول وتذهب إلى المجهول ، ومن هنا لم يستطع المذهب المادى الإجابة على هذا السؤال ؟ .

قال هايدين معلقا : إن الحقيقة التى طفق الإنسان يبحث عنها دهوراً عديدة هى روحانية فى وجودها ، والروح لا يدركها العقل » .

وتجد آخر واجه «العلم» : هو غابة تيار التكنيك. والتكنيك هو المنطق الآلى للعلوم .. هــذا التحدى هو أن يصبح التكنيك سيد العلم وسيد العقل البشرى ، ويكون الإنسان عبده الخاضع له بدلا من أن يكون سيده المسيطر عليه .

ويقول الباحثون : «إن العلم قد انحرف عن سبيله فقد أصبح سيد الإنسان بعد أن كان الإنسان صانعه وخالقه ، فكما أن جسم الإنسان يفقد خصائصه كإنسان حى ، إذا فقد الحياة النابعة من عقله وقلبه كذلك التكنيك يفقد خصائصه المنتجة إذا أضحى هو سيــد العلم بدلا من أن يكون العلم سيده» .

---

(٣)

ونسمع اليوم أصوات العلماء تتعالى بما يدحض النظرية المادية أو على الأقل يثير الشبهات القوية حولها كمقدمة لانهيارها فى المستقبل القريب .

فهؤلاء العلماء يكشفون اليوم حقائق جديدة . ويعلنون أن قوانين (الديناميكا الحرارية) قد أخذت تدلهم على أن لهذا الكون بداية ، وأنه إذا كان للكون بداية فلا بد له من مبدىء ، من صفاته العقل والإرادة واللانهاية .

ويقولون : إن هذا الخالق لا بد أن يكون من طبيعة تخالف طبيعة المادة التى تتكون من ذرات تتآلف بدورها فى شحنات أو طاقات لا يمكن بحكم العلم أن تكون أبدية أو أزلية[١] .

وعلى ذلك فلا بد أن يكون هذا الخالق غير مادى وغير كثيف ولا بد أن يكون لطيفا متناهيا فى اللطف ، خبيراً لا نهاية لخبرته لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار .

---

(١) راجع كتاب (الله يتجلى فى عصر العلم) وكتاب (العلم يدعو إلى الإيمان) .

ويقول هؤلاء العلماء :

فإذا كنا نريد أن نصل إليه (أى إلى الله) فسبيلنا إلى ذلك لا يكون بحواسنا التى لا تستطيع أن ترى إلا الماديات الكثيفة وإذا كنا نريد أن نلمس وجوده فإن ذلك لا يمكن أن يتم داخل المعامل أو أنابيب الاختبار ، أو باستعمال المناظير المقربة أو المكبرة ، وإنما باستخدام العنصر غير المادى فينا ، كالعقل والبصيرة .

إن فروع العلم كافة تثبت أن هناك نظاما معجزا يسود هذا الكون ، أساسه القوانين والسنن الكونية الثابتة التى لا تتغير ولا تتبدل ، والتى يعمل العلماء جاهدين على كشفها والإحاطة بها ، وقد بلغت كشوفنا من الدقة قدراً يمكننا من التنبؤ بالكسوف والخسوف وغيرها من الظواهر قبل وقوعها بمئات السنين .

والسؤال هو : من الذى وضع هذا النظام وسن هذه القوانين وأقام هذه السنن الكونية الثابتة التى لا تتغير ولا تتبدل .

ويوجه العلماء هذا السؤال ويجيبون عليه !

هل نشأ الكون مصادفة ؟.

إن العلماء يشرحون معنى المصادفة ويشيرون إلى استخدام الرياضة وقوانين المصادفة لمعرفة مدى احتمال حدوث ظاهرة

من الظواهر . لقد حسب العلماء احتمال اجتماع الذرات التي يتكون منها جزيء واحد من الأحماض الأمينية (وهي المادة الأولية التي تدخل في بناء البروتينات واللحوم) فوجدوا أن ذلك يحتاج إلى بلايين عديدة من السنين وإلى مادة لا يتسع لها هذا الكون المترامي الأطراف ،هذا لتركيب (جزيء واحد) على ضآلته فما بالك بأجسام الكائنات الحية جميعا من نبات وحيوان .

وما بالك بما لا يحصى من المركبات المعقدة الأخرى ، وما بالك بنشأة الحياة وبملكوت السموات والأرض وكانت الإجابة هي :

أنه يستحيل عقلا أن يكون ذلك قد تم عن طريق المصادفة العمياء أو الخبطة العشواء . لا بد لكل ذلك من خالق مبدع عليم خبير ، أحاط بكل شيء علما ، وقدر كل شيء ثم هدى ، ويقول العلماء: إن الانسان لا يستطيع أن يدرس أعمال أي صانع من الصناع دون أن يحيط بقدر من المعلومات عن الصانع الذي أبدع تلك الأعمال.

وكذلك نجد أننا كلما تعمقنا في دراسة أسرار هذا الكون وسكانه ازددنا معرفة بطبيعة الخالق الأعلى الذي أبدعه .

ويقول العلماء : إن الأرض والسموات بسائر تعقيداتها والحياة في شتى صورها ، وأخيرا الإنسان بكل قدراته العليا ،

كل ذلك أشد تعقيداً من أن يتصور الإنسان أنه حدث هذا وبمحض الصدفة ، فلا بد إذن من عقل مسيطر ومن إله خالق وراء كل ذلك[1] .

ويؤكد العلماء نظرية الإسلام في أن المعرفة تتم بواسطة العقل والقلب يقول (روبرت هورتون كاميرون) : إن الإنسان يحصل على العلم بطريقين :

البصر والبصيرة ، أما البصر فهو ما نتعلمه فى حياتنا وما نكتسبه عن طريق حواسنا من الخبرة بأمور الحياة .

وأما البصيرة فهى ذلك النور الذى يفرغه الله فى قلوبنا فيكشف لنا ما لا نعلم .

وكذلك الحال فيما يتصل بالإيمان بوجود الله ، إذ لا بد أن يقوم أولا على البصر وملاحظة ظواهر الحياة : الفكر والانفعالات ، والتمييز الخلقى ، وحرية الإرادة ثم نلتجىء بعد ذلك إلى الله لكى يكمل إيماننا ويدعمه .

ويقول العالم الكيمائى (واين أولت) :

إن الله كما نعرفه ليس « مادة » أو طاقة كما أنه ليس محدوداً حتى نستطيع أن نخضعه لحكم التجربة والعقل المحدود . بل على نقيض ذلك نجد التصديق بوجود الله يقوم على أساس « الإيمان » وهو إيمان يستمد تأييداً علميا من الدلائل غير المباشرة التى تشير إلى وجود « سبب أول » أو إلى « دافع مستمر » منذ القدم .

---

(١) ما لكولم دنكان وينتر .

« إن الإيمان بالله يعد لازما لاكتمال وجود الإنسان وتمام فلسفته فى الحياة ، ولا شك أن الاعتقاد بوجود إله خالق لكل الأشياء يعطينا تفسيراً بسيطاً سليما واضحا فى النشأة والإبداع والفرض والحكمة ، ويساعدنا على تفسير جميع ما يحدث من الظواهر .

أما « النظريات » التى ترمى إلى تفسير الكون تفسيراً آلياً فإنها تعجز عن تفسير كيف بدأ الكون ثم ترجع ما حدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى إلى محض « المصادفة » .

فالمصادفة هنا فكرة يستعان بها عن فكرة (وجود الله) بقصد إكمال الصورة ، والبعد بها عن التشويه .

ولكن فكرة (وجود الله) أقرب إلى العقل والمنطق من فكرة الصدفة ولا شك ، بل إن ذلك النظام البديع الذى يسود الكون يدل دلالة حتمية على وجود « إله » منظم ، وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط .

وعلى ذلك فالمشتغل بالعلوم هو أول من يجب عليه أن يسلم تسليما منطقيا بوجود عقل مبدع لا حدود لعلمه ولا لقدرته ، موجود فى كل مكان ، يحيط مخلوقاته برعايته سواء فى ذلك

الكون المتسع ، أو كل ذرة أو جزئية من جزئيات هذا الكون اللانهائية فى تفاصيلها الدقيقة .

« هناك ظواهر عديدة لا يمكن تفسيرها أو إدراك معناها إلا إذا سلمنا بوجود الله ، ومن ذلك مثلا :

« الفراغ اللانهائى » وما يسبح فيه من النجوم والكواكب التى لا يحصيها عد ولا حصر ، ومن ذلك أيضا :

« قابلية المادة للانقسام إلى جزئيات أساسية بالغة الصغر مهما كانت طبيعتها . ومن ذلك :

« التشابه الذى نشاهده بين جميع الكائنات الحية التى نعرفها مع اتصاف كل فرد بل كل نبات بل كل ورقة من أوراق الأشجار ، وقطرة من قطرات الماء بصفات تميزها عن غيرها .

وهناك أيضاً تلك الهوة العميقة التى تفصل بين الإنسان وبين سائر الكائنات الأرضية الأخرى وتجعله ممتازاً عليها بعقله ومهارته اليدوية .

وذلك هو الإيمان البصير الذى يقوم على العقل والتدبر » .

* * *

وفى موضوع « الإله » : يقول العلماء التجريبيون القادمون من داخل المعامل وأنابيب الاختبار :

« إن الإله الذى نسلم بوجوده لا ينتمى إلى عالم الماديات ولا تستطيع حواسنا المحدودة أن تدركه ، وعلى ذلك فمن العبث أن نحاول إثبات وجوده باستخدام العلوم الطبيعية لأنه يشغل دائرة غير دائرتها المحدودة الضيقة .

« لابد لنا أن نسلم أن هذا الكون المادى الذى يخضع لقيود الزمان والمكان ليس إلا جزءاً يسيرا من الحقيقة الكبرى التى ينطوى عليها هذا الوجود[١] » .

« وإذا كان هذا العالم المادى عاجزاً عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التى يخضع لها فلابد أن يكون الخلق قديم بقدرة كائن غير مادى .

« وعلى ذلك فالنتيجة المنطقية الحتمية التى يفرضها علينا العقل لابد أن يكون هذا الخالق عليما حكيما ، قادراً على كل شىء حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ، ولا بد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود تتجلى آياته فى كل مكان (٢) » .

* * *

(١) روبرت موريس برج . (٢) جون كليفلاند كوثران .

هذه الآراء التى يقدمها العلماء لا نثبتها هنا لنؤكد حقيقة غائبة ، ولكن لكى نفهم كيف يتطور العلم اليوم فيصل إلى الحقائق الأصيلة التى جاء بها الإسلام من عند الله ، ولنؤكد أن النظرية المادية التى تحاول اليوم أن تنشر سمومها فى كل مكان لا صلة لها بالعلم ، ولكنها فلسفة وهى أيضا نظرية وليست حقيقة علمية .

يقول (ادوار لوثر كيل) وهو من الباحثين الكيماويين الأعمدة :

« إن العلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا ، فهناك انتقال حرارى مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد فى الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة .

ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام ، وينضب فيها معين « الطاقة » ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيموية أو طبيعية .

ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها فى هذا الكون .

« ولما كانت الحياة لا تزال قائمة ولا تزال العمليات الكيموية أو الطبيعية تسير فى طريقها فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون « أزليا » وإلا استهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط فى الوجود .

هكذا توصلت العلوم دون قصد إلى أن لهذا الكون بداية وهي بذلك تثبت وجود الله لأن ما له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه ولا بد له من مبدىء أو من محرك أول أو من خالق وهو الإله .

« والواقع أن هذا الكون لا يزال فى عملية انتشار » مستمر تبدأ من مركز نشأته ، واليوم لا بد لمن يؤمنون بنتائج العلوم أن يؤمنوا بفكرة « الخالق » ، وهى فكرة تستشرف على سنن الطبيعة، لأن هذه السنن إنما هى ثمرة الخلق ، ولا بد لهم أن يسلموا بفكرة (الخالق) الذى وضع قوانين هذا الكون لأن هذه القوانين ذاتها مخلوقة ، وليس من المعقول أن يكون هناك خلق دون خالق ، هو « الله » .

وما إن أوجد الله مادة هذا الكون والقوانين التى تخضع لها حتى سخرها جميعا لاستمرار عملية الخلق عن طريق التطور - التطور المادى» .

* * *

ويقول كريستى موريسون مؤلف كتاب «العلم يدعو للإيمان»: « إن العلماء لا يقدرون أن ينفوا وجود الله . فكل واحد منهم فى قرارة نفسه يشعر بقوة الإحساس أو الفكر أو الذاكرة ،

والآراء التى تصدر كلها عن ذلك الكيان الذى نسميه بالروح ، وهم جميعا يعلمون أن الإلهام لا يأتى من « المادة » وأنه ليس من حق (العلم) أن تكون له الكلمة الأخيرة بشأن وجود الخالق .

«إن كون الإنسان فى كل مكان ، ومنذ بدء الخليقة حتى الآن ، قد شعر بحافز يحفزه إلى أن يستنجد بمن هو أسمى منه وأقوى وأعظم ، يدل على أن «الدين» فطرى فيه ويجب أن يقر العلم ذلك .

ويتساءل : ما هو الكائن الحى هل هو عبارة عن ذرات وجزئيات ؟ . ويجيب : نعم . وماذا أيضاً : شيء غير ملموس ، أعلى كثيرا من المادة لدرجة أنه يسيطر على كل شيء ، ومختلف جداً عن كل ما هو مادى مما صنع منه العالم ، لدرجة أنه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه ، وهو فيما نعلم ليست له قوانين تحكمه : إن روح الإنسان هو سيد مصيره ، ولكنها تشعر بصلتها بالمصدر الأعلى لوجودها ، وقد أوجدت للإنسان قانونا للأخلاق لا يملكه أى حيوان آخر ولا يحتاج إليه » .

* * *

من خلال هذه المقررات العلمية التجريبية يكشف العلم عن حقيقة واضحة جلية ويتحول عن غروره وصلفه ، ويتنكر

للدعاوى التى طالما حمل لواءها خصوم الأديان وخصوم الأمم الناهضة من أجل إثارة الشبهات فى نفوس بنيها وتحطيم معنوياتها وتدمير مقومات فكرها وقيمها .

إن الحقيقة التى لا شك فيها اليوم أن العلم قد تحول عن المفاهيم المادية الإلحادية ، وأن الفلسفة هى التى تحمل لواء هذه المفاهيم .

فلقد وصل العلم إلى أن الإنسان مركب من بدن ونفس ، ومن جسم وروح : البدن من عالم المادة لأنه يمتاز بالخصائص المعروفة للأجسام ، أما النفس أو الروح فإنها من عالم آخر يختلف فى خصائصه عن المادة .

---

(٤)

كما تحول العلم من مفهومه عن عالم الغيب ، أو الميتافيزيقا ، « فقد كان الظن إلى عهد قريب أن (المادة) لا تنقسم إلى ما لا نهاية بل تقف عند حد لا يتجزأ ، هو الذى سموه (الذرة) أو (الجوهر الفرد) ثم أثبت العلماء أخيرا : أن الذرة قابلة للتجزئة ، فبعض الذرات يتفجر من تلقاء ذاته مثل ذرات الراديوم واليورانيوم وغيرها ، واتضح أن الذرة تتحلل إلى ثلاثة أجزاء أو أشعة ، وبذلك انطلقت المادة الذرية وأصبحت طاقة يمكن استخدامها فى أغراض الحرب والسلم »[1] .

هذه هى الحقيقة التى قلبت موازين الفلسفة المادية رأسا على عقب :

« إن مفهوم المادة القديم قد تغير وأصبحت المادة طاقة » .

وبذلك سقطت تلك الحتمية التى ذهب إليها غلاة المادية فى القول بأن المادة هى كل شىء ، وهى أصل العقل والشعور ، وأن العقل ليس إلا إفرازاً من إفرازات المخ .

لقد أصبح هناك عالم خطير غيبى لا يعرف العلماء كنهه ، ولكنهم يشيرون إليه .

---

(١) الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى : (المذهب المادى فى العصر الحاضر) .

ليست هناك طاقة ومادة، وإنما هناك طاقة مجمدة تأخذ صورة المادة ، أو مادة مشعة تأخذ صورة الطاقة والانتقال من إحدى الصورتين إلى الأخرى مستمر ومتواصل ويخضع لقانون ثابت .

يقول الأستاذ احمد حسين : « لقد مضى العلم التجريبي فى سيره نحو الأصول الأولى للمادة أو الطاقة فإذا هى الإشعاع، والإشعاع أحد عناصر الضوء فالضوء هو الأصل ، وهو نقطة الابتداء .

وهكذا انتهى العلم التجريبى إلى ما انتهى إليه العلم النظرى من قبله ، وإلى ما انتهى إليه الوجدان الإنسانى قبلهما من وحدة القوة الكونية الخالقة .

وقد أثبت العلم أن كل ما كنا نتصوره ضدين متقابلين ليس إلا أمورا نسبية بحتة بالقياس إلى الإنسان : البرودة والحرارة ، اختلاف الألوان ، الأشعة : الحمراء والصفراء والخضراء .

دل ذلك على أن الأمر كلــــه هو إشعاعات تدرك العين الإنسانية بعضها ولا تدرك البعض الآخر ، فترى ظلاما مالا يعد فى دنيا الطبيعة بظلام .

فالوجود كله مشتق من الضوء أو كما يقول القرآن :

« الله نور السموات والأرض »

وهكذا تؤدى بنا الطرق إلى قيام الطبيعة على جوهر واحد وقوة واحدة [1]

* * *

ويقول دكتور « عماد الدين خليل » : إن « المادة » التى يرتكز عليها القانون الطبيعى قد حطمها اليوم العلم نفسه ، لم تعد العينة الصلبة من المادة هى أساس الطبيعة ، لقد كشف العلم الحديث عن جانب خطير من القانون الطبيعى وعلمنا أن أساس الطبيعة هى الحركة ، وليست المادة الذرات بأشكالها المتناهية فى الصغر تتحرك فتضفى الشكل المادى للأشياء ، وهذه الذرات هى التى تتشكل وفق حركة معجزة فى كيانها الداخلى ، وهو إيماء عجيب للإنسان المعاصر بزيف هذه الثنائية التى قسمت خلق الله إلى قسمين وأقامت بينهما جداراً من التباعد والصمت .

إن « الحركة » بهذا المعنى الكبير ، هى أساس الوجود المادى تماما كما هو أساس الوجود المعنوى »

* * *

وعندما يتقرر هذا المفهوم علميا وقد تقرر ، فإن ضربة قاتلة

---

(١) كتاب « الأمة الإنسانية » .

تصيب الفلسفة المادية ، كما تصيب « العلمانية » وهى نصر مبين للميتافيريقا وللغيب ولعالم ما وراء المادة .

ومن هنا تسقط الكلمة الساخرة حول « الغيبيات »

وهى التى تقال فى مجال اتهام الدين أو رفض مقرراته وخاصة فيما يتعلق بالألوهية والوحى وإعادة الله للخلق وللبعث والجزاء.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز : « إن الغيب الذى تؤمن الأديان بوجوده من وراء الطبيعة ليس من جنس هذه المادة المادية المنفعلة بل هو شيء ذو قوة فعالة مؤثرة . وله أسلوب فى تصرفاته مباين للطرائق التى تؤثر بها المادة فيما حولها .

« القوة التى يخضع لها المتدين فإنه يفهمها على أنها قوة عاقلة تقصد ما تفعل وتتصرف بمحض إرادتها ومشيئتها .

وهى ليست قوة منطوية على نفسها،منعزلة عنه وعن العالم ، بل يرى أن لها اتصالا معنويا به وبالناس تسمع نجواهم ، وتعنى بآلامهم وآمالهم ، وتكشف عنهم الضر .

« القوة التى يقدسها المتدين ليست فكرة مجردة ، وصورة

عقلية محضة ، بل هى حقيقة خارجية ، هذه الحقيقة ليست مادة يقوم عليها الحس بل هى سر غيبى لا تدركه الأبصار .

« هذه القوة الغيبية: قوةعاملة تتصرف بالإرادة، لا بالضرورة كالمغناطيس والكهرباء ، ولها عناية مستمرة بشئون العالم الذى تدبره وأن لها تجاوبا نفسيا مع نفوسه .

« والمتدين يرى وراء كل حس معنى، ويلتمس تحت كل ظاهر باطنا، ويضع فى مبدأ كل فعل فاعلا، معتقدا أنه لا يقع فى الكون شىء من دقيق الحوادث وجليلها إلا ولله فيه قضاء وتدبير .

والدين هو الاعتقاد بوجود « ذات غيبية علوية » لها شعور واختيار ولها تصرف وتدبير ، للشئون التى تعنى الإنسان، وهو اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية رغبة ورهبة فى خضوع وتمجيد وهو الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة .

ويقول : إن مطالب الألوهية مطالب توافرت عليه الفلسفات والنبوات ، وإن دلائله البرهانية ماثلة فى الأنفس وفى الآفاق ، وإن بواعثه النفسية مركوزة فى العقـــول وفى الوجدانات .

وإنمـا اختلف الناس فى الاستنباط والاقتناع ، فهناك من استمد إيمـانه من مشاهد الطبيعة وتجارب عالم الروح ، إن آيات الألوهية مبثوثة فى كل مكان وإن وسائل الناس إلى معرفتها مختلفة [1] » .

* * *

ومن الحق أن يلتمس الناس مفهوم « الله » سبحانه وتعالى من القرآن الكريم ، بعيدا عن الخوض فى النظريات الفلسفية والأساليب المنطقية ، ومن خلال نظرة عميقة نجد أن العقيدة فى « الله » سبحانه وتعالى فى الإسلام :

١ — الاعتقاد بوجوده الواجب لذاته غير المستمد من سواه ووصفه -جل وعلا- بصفات الكمال كلها نتيجة للنظر فى هذا الكون.

٢ — نفى صفات المشابهة والنقص عن الخالق -سبحانه- فالتجسيم منفى عنه لأن المادة تتحول والخالق بعيد عن وصف التحول والتعدد منفى عنه لأنه تركيب والإله لابد أن يكون واحداً والأبوة والبنوة بعيدان عن صفاته لأنهما تجزئة وانفصال والخالق لا يتجزأ .

٣ — عدم التعرض للحقيقة والماهية فى الذات أو الصفات

(١) « الدين » : كتاب بقلم الدكتور محمد عبدالله دراز .

من حيث هما ، مع الاحتراس الدقيق بتقرير المخالفة التامة بين ماهية ذات الإله وصفاته وماهية المخلوقات وصفاتهم يقول القرآن الكريم فى سورة الأنعام « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (١) .

وفى الحديث : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » (٢) .

ومن البدهى أن هذا الموقف لا يؤخذ على الإسلام فى شىء ولا يقال إنه حجر على العقول أو انتقص من حرية الفكر ، فالعقل البشرى وهو عماد العقيدة فى الإسلام يقف إلى الآن موقف العجز المطلق أمام حقائق الأشياء جميعا وكل الذى وصل إليه إنما هو الخواص وبعض الصفات والآثار .

أما البسائط المجردة فلم يصل إلى حقيقتها بعد .

وما كان الإسلام ليكلف الناس ما لا تستطيع أن تدركه العقول والأفهام .

٤ - رسم الطريق إلى معرفة صفات الخالق وإدراك كمالات الألوهية ومميزاتها وآثارها ؟ والوصول إلى ذلك عن طريق النظر

---

(١) الأنعام (١٠٢ - ١٠٣) .

(٢) أبو نعيم « فى الحلية »، والاصبهانى فى « الترغيب والترهيب » .

فى الكون نظرا صحيحا وتحرير العقول والأفكار من الموروثات والأهواء والأغراض حتى تصل إلى الحكم الصائب .

والقرآن يحث دائما على النظر فى المكونات والتأمل فى المخلوقات ويرفع من قيمة العقل ويعلى من قدر الفكر حتى لقد ذكر العقل فى أكثر من أربعين موضعا من القرآن مقرونا بالتبجيل والتكريم والحث على الجد إلى إدراك الحقائق وكشف مستورات الوجود.

٥ ـ تقوية الصلة بين الوجدان الإنسانى والخالق جل وعلا حتى يصل الإنسان بذلك إلى نوع من المعرفة الروحية هو أعذب وأصدق أنواع المعرفة جميعا ،وذلك أن الوجدان الإنسانى أقدر على كشف المستورات غير المادية من الفكر المحدود بقيود المادة ونتائج الأقيسة الحسية .

٦ ـ مطالبة المؤمنين بأن تظهر فى أقوالهم وأفعالهم آثار هذه العناصر العقدية فالمؤمن متى اعتقد أن خالقه قادر كانت النتيجة العملية لهذه العقيدة أن يتوكل عليه وأن يلجأ إليه ، وإذا اعتقد أنه عالم راقبه واستولت عليه خشيته وإذا اعتقد أنه واحد لم يدع سواه ولم يسأل غيره ولم يعرف وجهة إلا إليه .[1]

---

(١) عن إمام كبير .

(٥)

لقد حرص الإسلام أن يؤكد هذا المنهج الذى يقوم على « التفكير فى خلق الله لا فى ذات الله » .

فقد رسم القرآن : ميتافيزيقا كاملة للمسلمين لم يعودوا بعدها فى حاجة إلى شىء فى هذا المجال :

فقد قررت هذه الميتافيزيقا القرآنية :

أن الله ذات وصفات ، وأنه خلق هذا العالم من لا شىء ، وبعد أن لم يكن، خلقه من العدم والله هو الخالق لكل مايجرى فى العالم من تغييرات ويمكنه أن يعدمه كليا أو جزئيا . وهو مصدر النعم وهو الرحمن الرحيم، وأن البعث حق والبعث هو بعث الأجساد والأرواح معا .

وأن الأحجار والنباتات والكواكب والحيوانات والإنسان لا تستحق العبادة وما من إنسان يصح أن يعبد .

« إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » .

ويؤكد النبى محمد نفسه وهو خاتم المرسلين أنه ليس إلا بشر مثلكم ، وإنما الإله الحق هو خالق الإنسان وخالق العالم كله .

وإن الله بهذا المعنى ، معنى أنه مؤلف هذا الكون وحافظه

ومدبر شئونه وأنه مستغن بذاته عن كل ما عداه ، هو أرقى مفهوم عرفته البشرية للإله الواحد .

وهذه النظرة القرآنية الإنسانية تدحض كل النظريات الفلسفية الوثنية واليونانية والمجوسية والمحدثة التى تحاول أن تصور الله فى صور مضطربة بعيدة عن الحق ، وبهذا يدحض المفهوم الإسلامى نظريات :

التعدد ، وإله الخير وإله الشر ، وعبادة الأبطال وأنصاف الآلهة ، وعبادة العقل ، وعبادة القوة ، وعبادة الجمال ، ونظرية الإله اليونانى الجبار المرعب والإله الذى توهمه (أرسطو) [1] الذى لا يعلم الجزئيات ونظرية وحدة الخالق بالوجود ونظرية قدم العالم وعشرات من النظريات الفلسفية الضالة التى عرفتها الأمم والشعوب .

فالله هو خالق الأسباب والعلل ومقدر سنن الكون والطبيعة وقوانينها : « فهو القوة الخالقة المبدعة ، القوة الخالقة للأشياء والأسباب ، والمقدرة لهذه الأسباب أو لهذه السنن المطردة والقوانين المنتظمة ، فالسبب أو القانون نفسه ليس قوة عاقلة

---

(١) الله عند ارسطو هو المحرك الذى لا يتحرك عقل محض ، (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) .

مدركة خالقة مبدعة ، بل هـو نفسه جزء من نظام شامل لعـدد لا يحصى من الأسباب والسنن والقوانين .

ولذلك لم يكن فى العقلية الإسلامية تعارض بين العلم المبنى على البحث فى سنن الكون وأسبابه والإيمان بالله ، بل هنـاك ارتباط وثيق بين الكون وما فيه من سنن منتظمة من جهة والله المحيط بها كلها والخالق لها من جهة أخرى .

« والله فى العقيدة الإسلامية يتصف بالقدرة والحياة والعلم لأن نتائج خلقه وصنعه تدل على أنه خالق يصـدر عن عالم بما يخلق (ألا يعلم من خلق) محيط بالكون الذى خلقه ، مدرك لما فيه من سنن .

أما إله الفلاسفة فهو علة نهائية (أو قوة كامنة) غـير عاقلة ولا مـدركة افترضوا وجودها فى الأشياء وهى نفسها فى حاجة إلى تفسير وتعليل ما دامت غير محيطة ولا مدركة ولا واعية »

« والله فى العقيدة الإسلامية بالنسبة إلى الكون (خالق) لأصل وجوده ومقدر لسننه ونظامه (وخلق كل شىء فقـدره تقديرا) وما دام هـو الخالق له فهو المالك له والمتصرف به والقادر على توسيعـه وزيادته ، وعلى إبادته وإفنائه ، وما دام

هو الموجد لسننه وقوانينه فهو كذلك الحاكم ببقائه كذلك واستمراره والقادر على إلغائه وتبديله (له الخلق والأمر).

« فكل خصائص الكائنات وجميع سنن الكون ونواميسه وقوانينه ليست إلا مخلوقة مقدرة والله مسيطر عليها وليس هو جزءا منها وليس هو سببا من جملة الأسباب ولا علة من العلل فالأسباب والعلل والقوانين والنواميس كلها مخلوقة خاضعة فهى من خلقه وتقديره.

« والكون منتظم لا فوضى ، ولكن انتظامه مرتبط بإرادة الله،وقدرته واستمرار هذا النظام منوط كذلك بمشيئته العليا.

إن كل تعليل لحوادث الطبيعة بقانونها تعليل ناقص ، لأن القانون واقع يحتاج إلى تعليل ، وليس القانون موجداللحادثة من العدم وكل افتراض لقوة كامنة أو خفية إن صح فهو ناقص يحتاج إلى تعليل هذه القوة الكامنة غير الواعية ولا العاقلة.

« ولذلك كان الإيمان بالله الخالق متمما ومكملا لنظرتنا إلى الكون والطبيعة وما فيها من حركة وتطور ومن سنن وقوانين فهى محتاجة إلى وجوده ، مفتقرة إلى استمرار إمداده وعنايته ، مؤتمرة فى مسيرها وكيانها بأمره.

فالكون كله بمادته وسننه منقاد لمشيئته وهو ملك له وعليه انبسط سلطانه »[1]

* * *

ومن هنا يتبين أن « التوحيد » حقيقة فطرية لا سبيل إلى تجاوزها ، بالتعدد أو بالإنكار .

« والعقيدة فى الله عنصر ثابت فى النفس البشرية ، قائم فى صميم الفطرة يهدى البشرية إلى خالقها ، هذه العقيدة لم تتطور كما يزعم أصحاب المذاهب الفلسفية من عبادة الآب وعبادة الطوطم وعبادة الوثن إلى التوحيد ، وإنما العكس هو الذى كان فى الحقيقة . فقد بدأ العالم موحدا وبدأ الإنسان موحدا ثم انحرف عن العقيدة الصحيحة وليس صحيحا فى وقائع التاريخ أنه مرت على البشرية مجموعة من العقائد الوثنية انتهت إلى التوحيد وإنما الثابت من التاريخ أن البشرية مرت فى دورات متوالية من الإيمان والإلحاد والتوحيد ، والتعدد والتجريد والتجسيم .

---

(١) عن كتاب نظام الإسلام (العقيدة والعبادة) للدكتور محمد المبارك .

أما نزعة الإلحاد التى يشهدها العصر فإنها تطور طبيعى بالنسبة للتحديات التى واجهت الحضارة والنهضة نتيجة مفاهيم مضطربة عن مضمون الدين الصحيح . هذه المفاهيم هى التى خلقت ذلك التناقض بين العلم والدين ، وبين التوحيد والوثنية .

وقد جاءت الدعوة الحادة إلى إنكار الدين وعزله عن الفكر الغربى نتيجة هذه الخصومة العنيفة التى وقعت بين العلماء التجريبيين وبين الكنيسة الغربية ، وكان من نتيجتها ظهور الفلسفة فى محاولة وضع منهج عقائدى يغنى عن الدين فى البيئة الغربية .

ومن هنا نجد ذلك التحدى الواضح فى مختلف النظريات التى راجت فى السنوات المائة الأخيرة فهى جميعا تشجب الدين سواء أكانت نظرية فى الاقتصاد أو فى النفس أو فى الاجتماع أو فى السياسة وهى لا تعنى بالطبع (الدين) بمفهومه العام أو مفهومه الأصيل ، ولكنها تعنى « الدين » بمفهومه الذى واجهته .

ومن هنا فإن انسحاب هذه النظريات على الدين بعامة وعلى الإسلام بخاصة فيه تجوز كبير ، وفيه مغالطة وتمويه بالغان وإنما يراد بذلك استخدام هذه المادة لإثارة الشبهات .

ومن الحق أن يقال إن الغرور قد ركب الكثيرين على أثر

الكشوف العلمية مما سوغ لهم تأليه العقل ، أو إنكار كل ما لم يصل العلم فيه إلى رأى وكان من أخطر السهوم المسمومة التى رمى بها البعض : إنكار العالم الغيبى « الميتافيزيقا » .

ولكن العلم لم يلبث أن تنازل عن غلوائه وخفض من كبريائه وعاد ليؤمن بالقوة الخفية على النحو الذى سجله العلماء فى السنوات الأخيرة ، وخاصة بعد انفلاق الذرة ، وما تقرر من أن العالم كله مشتق من النور ، والنور حقيقة غيبية لا سبيل إلى إخضاعها للمختبرات والمجاهر والأنابيق .

غير أن الفلسفة لم تلبث أن حلت محل العلم فى دراسة الغيبيات وأنها قامت أساساً على الأساس المادى الذى لا يعترف إلا بالمحسوس والمرئى وبذلك عجزت عن أن تقول كلمة نهائية .

وبقى من وراء الفلسفة أصحاب القوى الهدامة الداعون إلى تدمير العالم والسيطرة عليه .

إن هدف النزعة المادية الفلسفية التى هى ليست فى الحق علما ، إنما يستغلها اليوم أعداء الإنسانية فى دعواتهم الهدامة المدمرة ، وذلك لإخراج أجيال منهارة مستسلمة مستعبدة للأوهام ، فاقدة لشخصيتها ووجودها ومقدساتها .

ومن هنا يجيء الخطر فى القول بأنه لا يوجد عالم وراء هذا العالم ومن شأن ذلك أن يؤدى إلى إنكار الله والوحى والنبوة والقرآن والبعث بعد الموت والجزاء الآخر .

ومن هنا فإن المعرفة الأصيلة إنما تقوم على أساس تكوين الإنسان نفسه (روحا ومادة) : وهى المعرفة العقلية والمعرفة المستمدة من الوحى والبصيرة .

ولا شك أن العلم سلاح من أسلحة المعرفة ولكنه ليس سلاحها الوحيد ، ومن الخطأ القول بأنه الوسيلة الوحيدة للمعرفة وأن ما عداه ليس شيئا .

يقول جيمس جنتز (العالم الفلكى الكبير) بعد دراسة علمية استمرت خمسين عاما : « إن مشاكل العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود الله » .

ويقول سومرست موم : إن الغرب قد نبذ اليوم إلهه ، وآمن بإله جديد هو العلم ، ولكن العلم كائن متقلب فهو ينفى اليوم ما أثبته بالأمس ، ويثبت غدا ما نفاه اليوم ، لذلك نجد عباده فى قلق دائم لا يستقرون .

* * *

ولا شك أن القول بأن الدين يلغى العلم أو العكس إنما هو خطأ ويرى الدكتور عماد الدين خليل أن هذا هو الشرك الذى تنصبه القوى الاستعمارية ، فالخطر فى قبول دين يرفض العلم أو قبول علم يرفض الدين .

أما العلم فهو طاقة من طاقات الإنسان .

وأما الدين فهو منهج ، منهج كامل للحياة البشرية يسعى إلى تنظيم علاقات الإنسان ، ليس بالطبيعة فحسب بل بكل ماله علاقة به : (النفس ، الأسرة ، المجتمع ، الأمم والشعوب ، الطبيعة ، العالم ، الأشياء) .

والعلاقات تنبثق من إيمان وإدراك بالله سبحانه والتزام مسئول لمنهجه تعالى .

« العلم علاقة واحدة من مجموع علاقات جاء الإسلام لكى ينظمها ضمن نظام كامل قوامه تصور كامل لوضع الإنسان فى الكون ومن ثم فليس للعلم أن يكون منهجا أو دينا للإنسان ، لأن الجزء لا يستشرف الكل . وأن علاقة واحدة لا تستطيع أن تحدد شكل ومصير علائق أخرى .

« يستطع العلم أن يضع منهجا فى التعامل مع الطبيعة والأشياء ولكن ليس مع الناس والغيب والأمم والشعوب .

« إن العلم لم يستطع حتى الآن أن يضع منهجا للتعامل مع الطبيعة نفسها ، وإنه لم يستطع السيطرة على معطياته وإلزامها بإسعاد الناس فحسب .

« إن العلم إذا لم تحده أخلاقيات ومثل ومعالم توجه العاملين فى حقله والساعين إلى اكتشاف عوالمه ، سيغدو طريقا إلى بربرية العصور الأولى .

« إن نتائج العلم تخضع اليوم لسيطرة الساسة والقادة العسكريين الذين تحكمهم الميكافيلية» .

« وهذا التطور العلمى ليست له علاقة البتة بتطور عقل الإنسان وروحه .

وما يقوله العلامة كرسى موريسون (رئيس أكاديمية العلوم فى نيويورك) قد يلقى أضواء كاشفة على موقف العلم من الدين :

«إن تحطيم ذرة (التون) التى كانت أصغر قالب فى بناء الكون إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب والكترونات طائرة ، قد فتح مجالا لتبديل فكرتنا فى الكون والحقيقة تبديلا جوهريا ، ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادى وأن المعارف الجديدة التى كشف عنها العلم لتدع مجالا لوجود « مدبر جبار » وراء ظواهر الطبيعة .

* * *

إن الاكتشافات الحديثة قـــد بعثت النتائج التى وصل إليها الفلاسفة والتى كانت قد حجبتها تماما نظريات (دارون) .

إن وجود الخالق تدل عليه منظمات لا نهاية لها تكون الحياة بدونها مستحيلة .

إن وجود الإنسان على ظهر الأرض والمظاهر الفاخرة لذكائه إنما هى جزء من برنامج ينفذه بارىء الكون .

* * *

إن العقل لا يمكن أن يستقل بمعرفة الله ولا أن يهتدى إليه إلا إذا صحبه فى تلك الغاية قلب » اهـ .

* * *

ونحن حين نورد هذه الآراء لا نحاول أن نستشهد بها على وجود الله تبارك وتعالى ولكننا نقدمها تكذيبا للقائلين بأن العلم ما زال ماديا، ينكر الغيب ، ونقول: إن العلم قد تحول عن نظرته القديمة.

أما دعاة المادية والإلحاد وإنكار الغيب وما وراء الغيب من بعث وجزاء فإنما هم الفلاسفة أصحاب المذاهب الهدامة التى ترمى إلى تدمير مقومات الأمم .

ونستطيع أن نقول فى هذا المجال الذى فتحه رجال العلم نحو الغيب : إن الإسلام هو دين الفطرة ، والفطرة ليست عقلا صرفا ولا عاطفة محضا ، وإنما هى مزيج من العقل والعاطفة إذا التقيا .

تلك هى الفطرة مركوزة فى النفس البشرية :

« فطرت الله التى فطر الناس عليها » .

القضية الثانية

الإسلام والدين

إن الهجوم على الأديان بصفة عامة ، والإسلام بصفة خاصة هي ظاهرة واضحة من ظواهر التحديات العصرية التي تواجه الأمم والشعوب ، إن هناك اتهامات خطيرة توجه إلى الدين ، فهو في شبهاتهم لم ينزل من السماء وإنما أوجده الإنسان نفسه ، أو هو مخدر خادع لإرضاء الضعفاء بسيطرة الأقوياء ، أوأنه بدأ وثنيا ثم تحول إلى التوحيد ، أو قولهم إن هناك شعوبا لم تعرف التدين .

* * *

والحق أن الاتهامات الموجهة إلى الدين إنما جاءت في ظل تحديات نفسية واجتماعية واجهت المجتمعات الغربية ، ولم تكن خالصة أو محررة في تقدير هذه الحقيقة التاريخية والإنسانية الخطيرة ، فمنذ فجر البشرية تطلع الإنسان إلى الله الخالق يلتمس تلك الرابطة بين صانع الأكوان والخلائق :

بين الواحد الأحد وبين الإنسان : سيد الموجودات ، خليفة الله في الأرض ومنفذ إرادته وحامل أمانة المسئولية .

ومنذ خلق الله آدم (قبضة من التراب ونفخة من الروح) وعلمه الأسماء كلها ، أصبح هذا الإنسان والنبي فى نفس الوقت : حامل رسالة التوحيد إلى البشرية .

وكذلك كان «الدين ظاهرة اجتماعية » أصيلة رافقت البشرية منذ أول نشأتها فلم تخل جماعة من دين ، وكان التوحيد هو منطلق العقيدة ، ثم لم يلبث الإنسان أن انحرف عنه ، وعبد الأوثان وتوالت الرسالات السماوية لتخرجه من الظلمات إلى النور .

فالحقيقة الأولى هى التوحيد وليس الوثنية ، والتوحيد هو عبادةالله الحق وليس عبادةالأصنام ، وقد تأكدت هذهالحقيقة فى آيات القرآن ، وكشفت عنها كثير من الحفريات والأبحاث الأنثروبولوجية ، بحيث لم تعد لتلك الآراء التى رددها بعض خصوم الأديان نصيب من حق أو صدق .

فقد بطل ما ادعاه هـؤلاء بتدرج البشر من معتقد قوامه السحر والكهانة والتنجيم والتمائم والطقوس إلى عقيدةالتوحيد ، ذلك أن الإنسان بدأ موحداً ، وآدم عليه السلام أول من حمل رسالة التوحيد إلى الناس ، أما السحر والكهانة والتنجيم والتمائم فتلك إنما تمثل تحولات الإنسان من التوحيد إلى الوثنية تحت تأثير الانحراف عن الدين الحق .

(٢)

لاشك أن الدين هو إحدى ضرورات الإنسانية حتى ليقول « بلوتارك » المؤرخ الرومانى : من الممكن أن تجد مدنا بلا أسوار ، وبلا ملوك ، وبلا ثروة ، وبلا آداب ، وبلا مسارح .

ولكن لم ير إنسان قط مدينة بلا دين ، أو لا تمارس العبادة ، فالدين طابع الإنسان .

"Man is incurably religicns"

ويقول اللواء طه الهاشمى: « الدين مؤسسة اجتماعية لا تستغنى عنها أية جماعة بشرية مهما كانت بدائية ، وفكرة الدين مندمجة بالإنسان منذ أول نشأته . وليس بين المؤسسات الاجتماعية مؤسسة تضاهى سلطان الدين فى سيطرته على الأفراد ، وزجرهم وكبح جماح غرائزهم سواء أكان الفرد بدائيا أو متمدنا .

وقد أقرت الأديان السماوية المنزلة ثلاث قواعد أساسية :

التوحيد : (وحدة الله) ، إلغاء عبادة الأصنام ، الاهتداء إلى حقيقة وجود الله عن طريق التأمل والبصيرة » .

ويقول الدكتور «عمر فروخ»: إن الأديان السماوية قد جاءت لترقية الإنسان من التجسيد المادى للقوى الطبيعية إلى التجريد الروحى للمدارك الإنسانية .

فقد كان اهتمام الإنسان القديم يكاد يقتصر فى الحياة الدينية إلى التطلع إلى الغيب . وقد وجهت الأديان السماوية اهتمام الإنسان المؤمن إلى الجانب الاجتماعى الذى يدور على نفع الناس بعضهم لبعض، والتأكيد على الجانب الأخلاقى لأنه أساس الصلة بين الأفراد وأساس المجتمع السليم ، والسلوك العاقل فى الحياة لاستقرار الصلات بين الجماعات وتنشئة أجيال صالحة للعيش فى مجتمعات متجاورة على الألفة والمحبة ، والتأكيد على نظام متماسك من العبادات والمعاملات يكون نطاقا حول المجتمع ، وزاجرا عن الهجوم على المجتمع .

فقد حاولت الأديان السماوية أن تنقل الإنسان والمجتمع الذى يعيش فيه من الفوضى إلى النظام ، ومن الاضطراب إلى الاستقرار ، ومن التغالب إلى التعاون ، ومن الخيال النظرى إلى الواقع العملى ، ومن الخرافة إلى الحقيقة .

* * *

وليس كتاب العرب والمسلمين وحدهم هم الذين يعترفون بالحقيقة الدينية، ولكن كثيراً من منصفى كتاب الغرب يرون ذلك .

يقول (ارنولد توينبى) فى كتابه « العادة والتغيير » : التدين جزء من الطبيعة البشرية والإنسان لا يستطيع أن

يعيش بغير دين من نوع ما ، فقد أستطاعت الأديان أن تعلم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية ، ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واختيار .

أما الأيدلوجيات الجديدة فإنها لا تستطيع أن تعطيه هذه الحقيقة لأنها لا تستطيع أن تحقق له الانعتاق الروحى الذى منحته إياه الأديان .

لقد وجدت الأديان لتحرر الإنسان من آسار المجتمع ، وتضعه مباشرة أمام مسئولياته، وقد استطاعت أن تمنح معتنقيها هداية لا تستطيع أن تجاريها فيها الأيدلوجيات الحديثة .

لقد منحته الاطمئنان والمساعدة والتوجيه والمثل الأعلى الخليق بالطموح ، ومنحته الراحة النفسية وحررته من سجون المجتمع .

ومن الحق أنه لا غنى للإنسان عن الدين ولن تستطيع الأيدلوجيات أن تحل محل الدين لأنها تمنحنا التعصب والتباغض بدلا من المحبة والتعاون ، إنها قد تمنحنا لقمة الخبز ، ولكنها تسلبنا الطمأنينة والتحرر الروحى .

إن نقطة ضعف الأيدلوجيات هى منافستها للأديان العليا على اكتساب ولاء الجماهير ، وهذا معناه العودة إلى « عبادة الإنسان » فبعد أن حررته الأديان من عبودية المجتمع وعبودية

الفرد ليتجه إلى الله وحده ، عاد الإنسان إلى سجن المجتمع ، وبعد أن كان فى علاقة مباشرة مع الحقيقة الخالدة عاد إلى ديكتاتورية العصور البائدة ، فتضاءل ليصبح نملة اجتماعية فى مجتمع النمل .

* * *

ويرى كثيرون مثل مايرى (توينبى) : «يرون حاجة البشرية دائماً إلى دين ، وأن الدين مؤسسة اجتماعية لا يستغنى عنها أى مجتمع بشرى . وأن فكرة الدين متأصلة فى نفوس البشر بحيث لم يقم مجتمع بشرى فى العالم إلا وهو مشبع بفكرة الدين» .

يقول (ماكس موللر) : «إن الدين قوة من قوى النفس وخاصة من خواصها ، وأن فكرة التعبد من الغرائز البشرية التى فطر عليها الإنسان منذ نشأته الأولى . وقد بدا للمؤرخين المحققين أن جميع الأقوام المتحضرة والبدوية كانت تؤمن بقوة عليا وتعبدها» .

ويقول (بنيامين كونستان) : «إن الدين من العوامل التى سيطرت على البشر ، وإن التحسس الدينى من الخواص اللازمة لطباعنا الراسخة ومن المستحيل أن نتصـــور ماهية الإنسان دون أن تتبادر إلى ذهننا فكرة (الدين)» .

وعلماء الاجتماع يؤمنون بأن الدين من أهم القواعد التى قام عليها بنيان المجتمع البشرى .

ويقول «تايلور»[1] إن الشعوب البدائية مهما انحط إدراكها فإن لها شكلا من دين، وقصد بالدين: (الاعتقاد بإله أعلى وبالحساب بعد الموت).

ويقول «سؤندر بلوم»[2]: لم نعثر فى أى مكان على قبيلة أو شعب ليس له طقوس مقدسة أو أنه لم يؤمن بكائنات عليا، إن الذين ادعوا بوجود شعوب وقبائل لا تدين بدين، إنما استندوا فى دعواهم إلى ملاحظات غير صحيحة».

ويقرر علماء الاجتماع المحدثون: عدم جواز وجود مؤسسة تستند إلى الكذب والزيف وأن تستمر وتدوم وقتا طويلا، وأن تظل على حيوية عظمى، وعندهم أن الأديان تستند إلى الطبيعة حتما.

ولولا ذلك لاعترضت سبيلها مقاومة قاهرة يتعذر التغلب عليها.

وقالوا: إن الدين استجابة لبعض الحاجات الإنسانية الثابتة.

---

(١) كتابه: الحضارة البدائية.

(٢) كتابه: مختصر تاريخ الأديان.

وأن فى العقل البشرى ميلا إلى التوحيد فهو يطلب دائما الوحدة وراء التنوع (١) .

ويقول « أرنست رينان » فى كتابه (تاريخ الأديان) :

« من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه ، وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين أو يتلاشى بل سيبقى أبد الآباد حجة قاطعة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدينية للحياة الطبيعية » .

ويقول (ت . س . اليوت) فى كتابه (آراء وملاحظات عن الثقافة) : إن الأديان أساس الثقافة وإن كل ثقافة مشتركة بين النـاس تنبع من عقائدهم الدينية ، فالمسيحية هى الأساس الأول للثقافة الأوربية بقدر ما كان تغلب الهندوسية على الهند ، العامل الأول الذى أضفى على الثقافة الهندية خصائصها التى تمتاز بها » ويقول : وكذلك الإسلام بالنسبة للعرب والمسلمين .

وليس الدين هو الإيمان الفردى والعلاقة الخاصة بين الله

(١) هاملتون جب .

والإنسان ولكن هذا جانب منه ، أما الجانب الآخر فهو جانب العلاقة بين الإنسان والناس ويتصل بالخلق والتربية والمعاملات والشريعة .

ومن هنا تعرف أن كل ما يوجه إلى الدين من اتهامات وشبهات إنما هو :

أولا ـ موجه إلى تصور الدين فى بيئة ما ، وليس إلى الدين الحق المنزل ولا إلى كل الأديان السماوية .

ثانيا ـ إن هذه الحملة لها هدف بعيد المدى ، هو إزاحة الدين من أجل إذاعة الإباحة والإلحاد ، والقضاء على مؤسسة الدين فى الغرب من أجل تغليب الإمبراطورية الصهيونية الإسرائيلية على المسيحية والإسلام على السواء .

(٣)

يقول الدكتور « محمد عبدالله دراز »إنه من المفارقات العجيبة أن يكون ازدياد العلم ونمو المعرفة سببا فى نمو غريزية التدين المبنية على طلب الغيب المجهول ، وكلنا لو تأملنا لتحققنا صحة هذه المفارقة ولعرفنا أن تقدمنا الحديث فى العلوم يقربنا حقيقة من الاعتراف بجهالتنا والإقرار بأن مثل ما نعلمه من الكون من جانب ما نجهله منه كمثل قطرة واحدة فى محيط خضم عميق .

ذلك أن كل باب جديد يفتحه العلم من دلائل عظمة الكون وامتداده ينفتح معه أفق أوسع للسؤال عما يتصل بهذا الميدان الجديد من المشاكل الكثيرة الغامضة .

«كان اتساع نطاق المعلومات هو نفسه اتساعا لنطاق المجهولات لأن محيط كل دائرة جديدة يماس الحدين بباطنه وظاهره فلا يسع العقل إلا التسليم بأن وراء كل مرحلة يقطعها فى عالم الشهادة مراحل أخرى فى عالم الغيب .

وصدق القرآن « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

وبعد أن وقف التحليل دهرا طويلا عند الذرة "Atome" على أنها الحد الأدنى الذى لا يقبل الانقسام أو الفناء والذى يحتفظ بكليته وخصائصه تحت تأثير كل القوى الطبيعية وفى أثناء

جميع التفاعلات الكيمائية أصبحت اليوم هذه الذرة نفسها عالما معقداً . مركبا من نواة جامدة وغلاف يدور كما تدور السيارات حول الشمس وتبين أن هذا الغلاف الذى هو جزء من تركيبها ما هو إلا شحنة كهربائية سالبة مجردة من كل حامل مادى ، وأنه يمكن فصله عنها بقوة إشعاعية أو بتسخين هائل .

« النواة نفسها : التى كانت تعد إلى عهد قريب متماثلة الأجزاء ، أعنى ذات قوة إيجابية فحسب ، قد ظهرت الآن مركبة بدورها من نوعين من الكهرباء : موجب وسالب .

وثبت أنه من الممكن تحطيمها وفصل أجزائها وأن القوة الإشعاعية الهائلة التى تستنبط من هذا التحطيم يمكن استخدامها فى إصلاح الكون وتعميره أو فى إفساده وتدميره .

وهكذا تخلع الطبيعة ثوبها المستعار وتنكشف المادة عن أصلها الأصيل فإذا هى (طاقة) أى قوة مجردة ، يلزم البحث عن مصدرها خارج ذلك الهيكل المادى المحطم .

وهكذا يقرب عالم المادة رويدا رويدا من عالم المجردات ويكاد يتصل عالم الشهادة بعالم الغيب من جهة حده الأدنى كما يتصل به من جهة حده الأعلى وهو غيب يؤمن به العلم وإن لم يره لأنه يحس أثره ويلمس خطره .

أجل أصبح العلم يؤمن اليوم بأن فى الوجود قوى لا ينالها الحس المجرد ولا الحس المجهز بأقوى المجاهر المزود بأدق المقاييس والموازين . أصبح يؤمن بأن التجربة الحسية المباشرة ليست هى المعيار الوحيد للتوحيد وهكذا وضع بيده اللبنة الأولى فى القاعدة التى تقوم عليها (الأديان) .

ويقول « سبنسر » عن المجهول : إنه تلك القوة التى لا تخضع لشىء من العقول ، بل هى مبدأ كل معقول ، وهى المنبع الذى يفيض عنه كل شىء فى الوجود ، أليس هـــذا المجهول هو بعينه موضع الديانات؟. وقال ليتريه : إنه حين بحثه فى العلوم الواقعة رأى نفسه محوطا من كل جانب ببحر لجى من الأسرار الغامضة وهـــو لا يملك سفينة يخوض بها لجته وليس معـــه إبرة يتعرف بها وجهة سفره .

ومن هنا فالدين هو قوة الفطرة الغلابة ، القائمة على نزعة الإيمان بالغيب والتطلع إليه من ناحية طرفيه : الماضى والآتى .

وهكذا سقطت نظرية الإنكار المادى لما وراء الحس

يقول الدكتور دراز فى كتابه القيم عن « الدين » :

ليس هناك قوة أخرى على وجه الأرض تكافىء قوة التدين أو تدانيها فى كفالة احترام القانون وضمـــان تماسك المجتمع واستقرار نظامه .

والعلم سلاح ذو حدين يصلح للهدم والتدمير كما يصلح للبناء والتعمير ولا بد لحسن استخدامه من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض لا إلى نشر الفساد والشر ، ذلك هو العقيدة والإيمان .

من أجل ذلك كان التدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قوانين العدالة والنصفة ، وكان لذلك ضرورة اجتماعية كما هو فطرة إنسانية ، وقد نشأ الدين حقيقة أولى زمانية تقترن بظهور الإنسان على هذا الكوكب ، ومن هنا خطأ القول بأن الدين بدأ فى صورة الخرافة والوثنية ، وأن الإنسان أخذ يترقى فى دينه على مدى الأجيال . (وهى آراء سبنسر وتيلور وفريزر ودوركايم) .

إن هناك نظرية أخرى قال بها بعض الباحثين إن عقيدة الخالق الأعظم هى أقدم ديانة ظهرت فى البشر مستدلا بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم فى القديم والحديث فتكون الوثنيات إن هى إلا أعراض طارئة أو أمراض متطفلة بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة .

ويقول : إن نظرية فطرة التوحيد وأصالته قد انتصر لها جمهور من علماء الأجناس وعلماء الإنسان وعلماء النفس ومن أشهر مشاهيرهم :

● (لانج) الذى أثبت وجود عقيدة الإله الأعلى عند القبائل الهمجية فى أستراليا وإفريقيا وأمريكا .

● (شريدر) الذى أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة .

● (بروكلمان) الذى وجدها عند الساميين قبل الإسلام .

● (لرواه،وكاترخام) اللذان وجداها عند أقزام أوساط إفريقيا.

● (شميدث) : وجدها عند الأقزام وعند سكان استراليا الجنوبية الشرقية وقد أشار شميدث إلى أن فكرة الإله الأعظم توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس البشرية.

وقال الدكتور (دراز) : إن الرشد والضلال فى الفكرة الدينية ليسا ظاهرتين متعاقبتين فقط صعوداً وهبوطا بل هما ظاهرتان متعاصرتان موزعتان فى كل أمة وجيل .

وقد اتفق مؤرخو الأديان على أن أشد الشعوب همجية ووثنية لم ينفك عن الاعتقاد بإله خالق هو رب الأرباب .

« وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا »

وبدأوا على الحق ،ثم جاء الانحراف والاختلاف عرضا طارئا.

« كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » والكتب السماوية متفقة على أن الجماعة الإنسانية الأولى لم تترك وشأنها تستلهم غرائزها وحدها ، بغير مرشد

ومذكر بل تعهدتها السماء بنور الوحى من أول يوم فكان أبو البشر : هو أول الأفذاذ الملهمين وأول المؤمنين الموحدين .

ولا شك أن وسائل العلم البشرى عاجزة عن تحديد نقطة البدء الحقيقى للدين وكل ما كتب فى ذلك هو افتراضات ، ويقول (سالمون رينال) : إنه لا توجد أمارة واحدة تدل على أن فكرة الدين ستزول من الأرض قبل أن يزول الإنسان ، وأنه ستبقى فى الكون دائما أسرار ومجاهيل ، وأن العلم لن يحقق أبدا مهمته على وجه الكمال .

ويقول : العلامة (محمد فريد وجدى) : نعم : يستحيل أن تتلاشى فكرة التدين لأنها أرقى ميول النفس وأكرم عواطفها ، ففطرة الدين تلاحق الإنسان ما دام ذا عقل يعقل به الجمال والقبيح وستزداد فيه هذه الفطرة وتعمق على نسبة علو مداركه ونمو معارفه .

ويرى كثير من المؤرخين والباحثين أن الأخطار التى ألمت بالعالم المعاصر إنما جاءت نتيجة نظرة الإلحاد والإباحة التى أخذت تسيطر على البشرية فى الأجيال الأخيرة .

(فروبرت مليكان) العالم الطبيعى الكبير يرى أن أهم أمر فى هذه الحياة هو الإيمان بحقيقة المعنويات وقيم الأخلاق .

ويقول : لقد كان زوال هـذا الإيمان سببا للحرب العامة ، فإذا لم تجتهد البشرية الآن لاكتسابه وتقويته فان يبقى للعلم قيمة بل يبقى نـكبة على البشرية .

وقد أشار القائد بيتان إلى هـذا المعنى فى بيانه الذى وجهه إلى الأمة الفرنسية على إثر هزيمتها ١٩٤٠ حين قال : إننى أدعوكم أول شىء إلى نهوض أخلاقى .

ويقول القائد العالمى مونتجمرى :

« إن أهم عوامل الانتصار فى الحرب هو العامل الأخلاقى ، ولا يمـكن لقائد أن يدفع جنوده إلى بذل أقصى جهودهم فى العمل إلا عن هذا الطريق ، إن خطر الانحطاط الخلق فى أفراد الجيش أعظم من خطر العـدو ، ولذلك لا نستطيع أن ننتصر فى معركة إلا إذا انتصرنا على أنفسنا قبل كل شىء » .

ويقول الدكتور (مونتجمرى وات) فى كتابه « الإسـلام والحضارة » : «لقد كان الدين على مر العصور هو جوهر الوجود أو روح العالم، وكما يتهاوى جسد الإنسان بعد خروج الروح منه فإن العالم ينهار إذا ما زال الدين منه، أى أن العلاقة بين الدين والوجود خالدة خلود العلاقة بين الجوهر والعرض » .

ويجمع العلماء على أن أهمية الدين فى بناء المجتمعات إنما يرجع إلى قدرته على إقامة التعاون بين أعضائه ، حيث يتم هذا التعاون بقانون ينظم علاقاته ويحدد واجباته وحقوقه ، وأن الدين يعمل على تهذيب السلوك وتصحيحه ، وتطبيق العدل ومقاومة الفوضى والفساد ، كما أنه يربط بين قلوب معتنقيه برباط المحبة والتراحم وهو رباط لا يعدله رباط آخر من الجنس أو اللغة أو الجوار ، وليس على وجه الدين قوة تكافىء قوة التدين أو تدانيها فى كفالة احترام القانون وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه [١] .

---

(١) راجع الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه « الدين » .

القضية الثالثة

الإسلام والتوحيد

(١)

إن هناك تركيزا كبيرا ومستمرا وبعيد المدى على الإسلام ، وإثارة الشبهات حوله من حيث القول بأنه مضاد للعصر ، وبأنه دين صحراوى ، أو أنه أدى دوراً تاريخياً وانتهى ، إلى عشرات من الاتهامات البالغة الظلم لحقيقة الإسلام .

وإن من حق الإسلام علينا أن ننظر إلى مصادر هذه الحملات وهذه الشبهات أساسا قبل أن ننظر إلى مادتها وموضوعها ، فإذا كانت إنما هى بحث علمى أو منهجى يراد به الفهم وتقرير الواقع نظرنا فيه وأوليناه الاهتمام ، أما إذا كان صادرا عن تعصب دينى أو خصومة سياسية فإن الأمر فيه يكون واضح الغرض ، ظاهر البطلان .

إن الحملات التى توجه للإسلام إنما توجه من جهات الاستعمار والتبشير والتغريب ، ودعاة المذاهب المادية ، وأصحاب المطامع السياسية فى السيطرة . ومن هنا فإن آراءهم ليست علمية أساسا

ولو غلفت فى أثواب ذات مظهر علمى زائف، هذا فضلا عن خطأ انسحاب النظرة الفلسفية أو العلمية الغربيـة للدين كما يراه أهـله فى الغرب ، انسحاب هـــذه النظرة على الإسـلام يعد مجـافاة للحقيقة والواقع .

ذلك للاختلاف الجذرى البعيد المدى بين واقع الإسـلام وواقع هذه الأديان بالرغم من وحدة مصادرها الأولى .

ويختلف مفهوم الدين : بين الفـكر الإسلامى والفـكر الغربى من جهات كثيرة ، وذلك لاختـلاف العوامل التاريخية لـكل من الفـكرين :

والتعريف الذى وضعه الفـكر الغربى للدين لا يمكن أن ينطبق على الإسلام ، ورجل الدين فى الفرنسية يوصف بأنه Roliguieux

ومعنى هذا الوصف أنه لا يصلح لفهم أمور المعاش بسبب انقطاعه عن صحبة الناس وفى الغالب أن هـذا الاصطلاح يعنى الزاهد المنقطع فى الأديرة .

والفـكر الإسلامى لا يعترف أساسا بكلمة رجل دين وليس فى الإسلام طبقة كهنوتية ولا مراسم معينة تفرض نفوذها على العلاقة بين الله والإنسان .

وكل مسلم من حقه أن يعرف أصول الدين ، والمتخصصون فى هذه الدراسات هم « علماء الدين » لان رجال الدين بحسبانهم قادرون على بحث دقائق أمور العقائد أو الشرائع أو الأخلاق وهى المقومات الأساسية للإسلام .

والإسلام ليس دينا بمعنى « اللاهوت » فى الاصطلاح الغربى فحسب ، فهو دين ونظام مجتمع ومنهج كامل للحياة الإنسانية .

ولم يقف الإسلام أمام الحضارة والعلم والمدنية معارضا أو مناهضا ، بل كان هو باعثا هذه الانطلاقة العلمية التى انتهت بإبداع المسلمين للمنهج العلمى التجريبى .

فالحضارة الإسلامية تنبع أساسا من مفاهيم الإسلام ولا تنفصل عنه ، ولذلك فإنه لم يحدث أى صراع بين المفاهيم الإسلامية وبين كشوف العلم وتطورات الحضارة ، وكل الكشوف العلمية وفى مقدمتها المنهج التجريبى إنما قامت فى حضانة الإسلام نفسه وبتوجيهه ، هذا المنهج التجريبى الذى تسلمته أوربا من المسلمين وأقامت عليه الحضارة المدنية .

ولم يحدث فى تاريخ الإسلام اضطهاد للعلماء أو الفلاسفة أو الباحثين ، وكل ما وصف بأنه اضطهاد لم يكن مصدره معارضة لحرية الفكر وإنما كان نتيجة لشىء آخر ، ربما كان من أمور

الحكم والسياسة ولم يضطهد مفكر مسلم واحد نتيجة لخلاف في الرأى وإنما جاء ذلك بالنسبة لقلة قليلة فى مجال التآمر السياسى أو الاتصال بدولة أجنبية (راجع وقائع حياة الحلاج والسهروردى) أما بالنسبة للغرب فقد كانت تجربته مع الدين مختلفة أشد الاختلاف ولذلك فإن نظرته إليه وموقفه منه ، هذا الموقف المتمثل فى آراء « نيتشة وماركس وفرويد ودوركايم وسارتر» ، إنما قد استمد مقوماته من الخلاف بين العلم والكنيسة ، أو من مفهوم المسيحية الغربية المختلف اختلافا جذريا عن مفهوم المسيحية السماوية المنزلة وذلك حين ارتبط الفكر الوثنى الإغريقى ، والقانون الرومانى بالمسيحية ، وأقام ذلك النتاج الفكرى الذى رسم منهج الحياة العقلية والروحية والاجتماعية فى أوربا منذ عصر النهضة إلى اليوم .

ومن هنا كانت نظرة الفكر الأوربى إلى المسيحية (الغربية) فى أوائل النهضة حيث وقفت الكنيسة مع الإقطاع والأمراء ، أمام أضواء العلم الذى استمدته أوربا من مصادره الإسلامية عن طريق الأندلس ، نتيجة لآراء وأفكار ابن سينا والغزالى وابن رشد ، التى اقتبستها مدارس أوربا المسيحية منذ القرن الثانى عشر الميلادى إلى القرن السادس عشر ، هذه الأفكار التى أخذت

تطورات عميقة فى الفاسفة واللاهوت والأخلاق فى الفكر الغربى والمسيحى ، بالإضافة إلى المنهج التجريبى الإسلامى ، مما كان مصدرا أساسيا لقيام الحضارة الحديثة .

وقد بدأ تاريخ الفكر الأوربى فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى مشحونا بالمصادمات ومظاهر الطغيان التى تكررت فى قتل الرجال والنساء وإحراق الجثث البشرية والمدن وتخريبها وإباحة السلب والنهب وقيام محاكم التفتيش ، والخلاف بين (الكاثوليك والبروتستانت) مما انتهى إلى مذبحة (سانت بارتلمى).

من شأن هذا كله وقصته طويلة وفصوله دامية ، أن أعطى للدين مفهوما مظلما موحشا ظل يعيش فى أعماق الفكر الأوربى ويصبغ الفكر الغربى كله ، ويسيطر بالتحدى على مفكريه .

ومن هنا فإن مفهوم الدين فى الفكر الغربى (بشقيه) بدأ من ذلك الوقت مختلفا أشد الاختلاف عن مفهوم الدين فى الفكر الإسلامى .

ومن هنا كان اتجاه الفكر الغربى كنقطة تحول إلى الإيمان بالإنسان سيدا للكون وبتقديس العقل ، كبديل عن الإيمان بالله ، ثم كانت نزعات الإلحاد والعلمانية ودين الطبيعة وعشرات من المذاهب العقائدية والايدلوجيات السياسية والاجتماعية ومحاولة إقامة نظام أخلاقى منفصل عن الدين .

ولقد ألقت هذه المعارك والفلسفات والنظرات ظلها على الفكر الإسلامى منذ بدأ زحف الاستعمار الغربى على العالم الإسلامى، حاملا معه هذه المفاهيم كجزء من مخططه فى الغزو الثقافى والتغريب للقضاء على قوة الدين وأثر الإسلام فى النفس العربية الإسلامية وكسلاح لتركيز السيطرة الغربية وتمكين النفوذ الاستعمارى .

ومن خلال معركة الدين نشأت فى أوربا شبهة القول بأن الدين يتعارض مع النظر العقلى، وهى شبهة لها مجالها الحقيقى فى واقع الفكر الغربى، بينما لا نجد لها أى أثر فى حياة الفكر الإسلامى، ومن هنا أيضا ذاعت الدعوات التى حملها كثير ممن درسوا هذا الصراع بين الغرب والدين، وهى اتهام الدين بأنه تأخر وانحطاط وأن الوسيلة الوحيدة للارتقاء والتقدم، هو الانسلاخ من الدين وابعاده عن مجال الحياة وإلغاء سيطرته على أى مفهوم من مفاهيم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وقد ظلت هذه الشبهة تسرى كالنار فى الهشيم فى دعوات بعض الموالين للثقافات الغربية فى العالم الإسلامى وتتصل بكثير من مناهج الدراسة فى الجامعات والصحافة ومجالات البحث المختلفة .

(٢)

قاعدة الإســـلام الأساسية هى « التوحيد » : القائمة على الاعتقاد بوجود الله الذى لا يتغير بتغير الزمان والمكان وهو فى هذا يبدو مختلفا مع عقائد كثيرة ومن هنا كان عجز المعارضين له ، عجزا فى الفهم أساسا .

وقد جرت محاولات ضخمة لنقد مفهوم التوحيد فى الإسلام، وذاعت دعوات كثيرة حملتها رياح التغريب فى محاولة من دعاتها لإحلالها مكان الإسلام فى نفوس المسلمين غير أن هذه الدعوات قد فشلت وهذه السنان المسمومة المصوبة قد ردت إلى أصحابها.

وفى هذا يقول العلامة محمد فريد وجدى :

« إذا كانت أمة لا تنجح فيها دعوة دينية فهى الأمة الإسلامية لأن دينها أجمع الأديان لمعتقدات البشر ، منقحة مهذبة ، تتفق مع العقل والعلم معا ، فهم يؤمنون بجميع رسل الله ، وأمروا ألا يفرقوا بين أحد منهم ، ويؤمنون بالكتب كلها ويحترمونها ، ومع احترامهم لجميع الكتب فإنه يتعذر على أكبر قوة فى الأرض أن تحولهم عن دينهم » .

* * *

وقد دارت حول الإسلام مباحث كثيرة وكانت هذه

النظريات فى هجومها على الأديان تحاول أن تقرن الإسلام بها دون تفرقة أو نظر إلى موقف الإسلام الصحيح من قضايا العصر والحرية والعلم وغيرها . وعلينا أن نفصل بين هذه الآراء فى الدين وبين الإسلام ، ذلك لأن هذه النظريات لا تقصد الإسلام حيث لم يكن دين أوربا ومفتاح البحث كله ، ونقطة الالتقاء والاختلاف بين الإسلام وبين العقائد المختلفة : إن الإسلام دين ونظام وحياة ، وأنه ليس دينا تعبديا لاهوتيا خالصا ، ومن هنا يمكن المقارنة والفصل بينه وبين غيره من عقائد .

ولقد كون الإسلام لهذه الأمة فكرا ، قوامه التوحيد الذى هو قوام الإسلام نفسه ، ومن خلال هذا الفكر تكون مزاج المسلمين النفسى والاجتماعى ، وتكونت قيمهم ومفاهيمهم ، على اختلاف قومياتهم وأوطانهم ، وارتباطاتهم بالأرض أو بالعرق .

ومن الحق أن يقال إن هناك وحدة فكر تجمع المسلمين على اختلاف أوطانهم وأجناسهم ، ومن الحق أن يقال أيضا إن النفوذ الاستعمارى منذ سيطر على العالم الإسلامى كان يهدف إلى القضاء على هذه الوحدة الفكرية طريقا للقضاء على الوحدة العامة التى تجمع المسلمين جميعا .

وتهدف محاولة القضاء على وحدة الفكر : العمل على خلق قيم جديدة وافدة من الفكر الغربى الذى يختلف فى أسسه وقيمه عن الفكر الإسلامى ، أو وضع مفاهيم جديدة غربية للقيم الأساسية الإسلامية .

ولكن الفكر الإسلامى كان دائماً ، انطلاقا من أصالته ، قادراً على مجابهة هذه الحملات والمحاولات ، وكان قادرا على النظر فى الفكر الوافد ، وتقبل ما يتفق مع مناهجه وقيمه ، وامتصاص ما لا يخرجه عن ذاتيته وأصوله وجذوره .

وكذلك لم يستسلم الفكر الإسلامى فى الماضى للنظريات الدخيلة أو الفلسفات الوافدة ، ولم يتقبلها تقبلا من شأنه أن يؤثر فى أسسه ومقوماته ، وأمامنا أخطر تجربة مر بها الفكر الإسلامى حين اتصل بفلسفات اليونان والفرس والهنود ، فقد درسها وانتفع بالجوانب الصالحة والإيجابية منها ، وأضافها إلى كيانه ، ولكنه لم يتقبلها تقبلا كاملا ، وإنما صاغها داخل بوتقته ، وفى مجريات منهجه القائم على التوحيد ، والمستمد من القرآن .

ولقد رفض فكرنا الإسلامى أساساً منطق (أرسطو) ، وأعلن على لسان قادته ومصلحيه : أن للإسلام منطقا مستمدا من القرآن .

وفى العصر الحديث لم يستسلم الفكر الإسلامى للنظريات الغربية : لا مفاهيمها ولا قيمها ، وقاومها طويلا ، وأعلن وجهة نظره الخالصة ، واضحة فى مختلف القضايا ، وظل جيلا بعد جيل يواجه هذه النظريات ويكشف عن نظريته الأصيلة فى كل قضية ، ويدلى برأيه فى كل معضلة ، لا يتوقف عن النظر المنصف ، ولا يتقبل كل شيء كما هو .

بل لم يتوقف الفكر الإسلامى عن معارضة كل قيمة تختلف عن مفهوم التوحيد أو منهج القرآن ، هذا مع إبقائه على طابعه ومحافظته على سمته ، وتأكيد سماحته المعهودة ، فى الانفتاح على مختلف الثقافات ، وأخذه منها وعطائه ، دون أن يخرجه ذلك عن مقوماته .

وقد اعترف كثير من الباحثين ، بل وبعض المستشرقين ، اضطروا إلى الاعتراف بالحقيقة ، التى تتمثل واضحة فى أن للفكر الإسلامى ذاتية أصيلة وطابعا خالصا وشخصية مميزة ، غير متقبلة للانصهار أو الذوبان فى أى ثقافة أو فكر آخر .

إن أمانة المفكرين فى عصرنا وجيلنا تحتم عليهم أن يعملوا دائما على تحرير الفكر الإسلامى من التبعية أو الانصهار فى الفكر الغربى ، وهى نفس الأمانة التى حملها الرواد الأمناء من قبلهم .

(٣)

حاولت الفلسفات المعاصرة أن تهاجم الأديان وأن تصفها فى دائرة « الغيبيات » وقد استطاع العلماء التغلب على مفهوم الغيب ، وإن لم يقولوا فيه الكلمة الأخيرة ، فقد اعترفوا به إن أصحاب المذاهب الفلسفية والنظريات العقلية قد عجزوا عن ذلك ، ولكن القوى التى تسوق المذاهب والنظريات لتكون وسيلتها إلى تدمير المجتمعات القوية المتماسكة ما تزال تثير الغبار حول الإيمان بالغيب والبعث والجزاء وهو الأساس الثانى للدين عامة وللإسلام خاصة بعد قاعدة « التوحيد » .

وإذا كان منهج المعرفة يعتمد على العقل وعلى البصيرة فإن هذا الجانب مما نؤمن به عن طريق الوحى أو القلب أو البصيرة .

يقول الدكتور (محمد محمد حسين)(١) : إن الله سبحانه حين علم ضعف العقل وعجزه - وهو العليم الحكيم - أرشد خلقه الضعفاء فيما هو خارج عن حدود تفكيرهم إلى ما فيه خيرهم وأمرهم بلزومه والانقياد له - سبحانه - فيه ، سواء أدركوا وجه المصلحة والخير فيه أو لم يدركوه ، لأن إدراك الخير والشر ، والنفع والضر ، والجمال والقبيح ، يحتاج إلى أن يحيط المدرك بالوجود كله زمانا

---

(١) راجع بحثه : إتجاهات هدامة فى الفكر العربى المعاصر .

ومكانا وعلما . والإنسان لا يعرف من الوجود المترامى الذى لا يحيط تصوره بأوله أو بآخره ، إلا حاضره الذى لا يعد شيئا مذكوراً إذا قورن بالوجود كله ، بل إنه لا يدرك من هذا الوجود الراهن على تفاهته إلا أقله .

وهو مع ذلك كله ـ أو لذلك كله ـ يجهل العلة ويجهل الغاية ومن كان هذا مبلغ عجزه ومنتهى إدراكه ، كيف يسوغ له أن يعارض ما أنزل الله وأن يتجاوز حدوده بدعوى أنه لا يدرك حقيقته أو لا يدرك وجه المصلحة فيه .

من أجل ذلك كان الطعن فى الإيمان بالغيب هدما للعقيدة الدينية فى لبها ، وفى صميمها ، وفى أساسها الأول الذى لا قيام لها بغيره ، وما أكثر ما يذاع فى هذا الباب مما يدعو الناس إلى الشك فى كل مايخرج عن دائرة المحسوس يصدر باسم العلم والعلمانية وباسم حرية الفكر والتحرز من عبودية التقليد .

والعلمانية Seculerism والتحررية Liberelism كلاهما مذهبان أوربيان مناهضان للدين برزا فى القرن الميلادى الماضى وسرت عدواهما فيما سرى إلى العرب والمسلمين والشرق على وجه العموم حين نظروا بعين الوهم فى أعماق ضعفهم إلى الغرب فى ذروة تفوقه فظنوا أن كل ما يصدر عنه حق وجميل .

ويلتقى المذهبان عنـد الدعوة إلى الاعتماد على الواقع الذى تدركه الحواس ونبذ كل مالا تؤيده « التجربة » والتحـرر من العقائد الغيبية التى هى عندهم ضرب من الأوهام،ومن العواطف بـكل ضروبها .

فالأديان كلها عندهم أساطير ، كان الناس يخضعون لما تخوفهم به من العذاب ثم تحرروا من هذا الخوف الموهوم الذى زعمته الأديان .

وقد غاب عن هؤلاء أن الدراسات التجريبية محدودة الميدان والمدى ، لا تتناول إلا المدرك والمحسوس ، والمدرك والمحسوس أقل بكثير مما لا يخضع لحسنا وإدراكنا .

وقد عرف أصحاب هذه الدراسات ، حين اكتشفوا أن الموجات التى تدخـل فى مدى إدراكنا الحسى ليست إلا شيئا ضئيلا تافها بالقياس إلى المعـروف منها فضلا عن المجهـول . وأصبح عجـز الحواس البشرية شيئا مقررا تؤيده الدراسات التجريبية نفسها .

ولا يزال علمـاء الفلك يقفون مشدوهين أمام ذلك الفضاء الغامض لا يعرفون مقاييسه وأبعاده إلا ظنا . بـل إن بعض ما يستنتجونه أدعى للحيرة من الجهل به . فهم يقدرون أن بعض

النجوم - اركتورس مثلا - تبعد عنا ثلاثين سنة ضوئية ومعنى هذا أن ذلك النجم الذى نراه الآن لا نراه كما هو الآن . ولكنا نراه كما كان منذ ثلاثين سنة لأن الشعاع الضوئى الذى يصل إلى أبصارنا الآن هو الذى انبعث منه منذ ثلاثين سنة ، ويقدر الفلكيون أن بعض المجرات يبعد عنا ملايين من السنين الضوئية ومئات السنين .

إن المنهج التجريبي يستطيع أن يوصلنا إلى تسخير بعض الظواهر والطاقات وتطويعها لمصلحتنا ، ولكنه لا يوصلنا إلى حقائق هذه الظواهر والطاقات .

إن إنكار الغيب ليس ثمرة المعرفة ولا ثمرة العلم ولكنه من آفات القليل من المعرفة والقشور من العلم .

* * *

إن آية الآيات فى الدين كما يقرره الإسلام :

· الإيمان بالغيب، واليقين بالبعث والجزاء وبالتبعة والمسئولية الفردية وهذه حقيقة جوهرية لا يسقطها الإسلام أبدا ، بل يضعها دوما نصب الأعين والعقول والأفهام ، ومن خلالها تجرى كل أعمال الدنيا ، والإيمان بالجزاء والبعث عامل قوة وإيجابية ودافع بناء وحركة ، وليس عامل جمود أو تخلف ، وإذا لم يكن للأعمال الكبرى فى الحياة الإنسانية وجهة ربانية تعطى

ثمرتها فى الدنيا وتعطى جزاءها فى الآخرة ، فإن رسالة الإنسان فى الحياة تكون عبثا ويكون وجوده اعتباطا ، ولا يمكن أن تكون الحياة بغير غاية ، أو يكون الإنسان بغير رسالة ، وتلك هى الحقيقة التى يكشف عنها (الدين) للعقل البشرى ، والتى قد تغيب عنه ولا يهتدى إليها إذا لم يجعل الدين مقوما من مقومات فكره وحياته ، ليست الحياة عبثا وليست النفس الإنسانية فيها ضياعا ولكنها رسالة ومسئولية وهى حقيقة وتبعة ثم هى بعد ذلك بعث وجزاء .

وإن دعاة المذاهب الفلسفية يحاولون من أجل أهداف الغزو الثقافى والاستعمار العالمى أن يحجبوا هذا المعنى ، ويفسدوا الفطرة الإنسانية بالحديث عن نهاية الحياة بالموت ، وذلك حتى يفسحوا المجال أمام الناس للركض من أجل الملذات التى ينتهبونها قبل أن تأكلهم الحروب والقنابل الذرية ومن هنا فتح ذلك الباب الخطير باب القلق والضياع والرفض وغيرها من منطلقات لا يعرفها المسلم والمؤمن بالدين. وهى تلك النار التى تأكل القلوب والنفوس حين تنزاح عن أصحابها فطرة الإيمان بالله وعقيدة الدين.

وحين يتأكد للنفس الإنسانية أمر البعث والجزاء ، تتجه الأعمال فى الحياة وجهة الخير والحق والعدل ، وتنزاح تلك الأزمة التى تحاول أن تغرق النفوس فى تيه مضلل ، ومن حسن الحظ

أن الأمة الإسلامية تعرف أصالة التدين وفى أرضهم نزلت الأديان، ومن هنا فهى حرية ألا تقع فى هذه الأزمة الصاعقة التى تجيش لها الصهيونية العالمية قواها حيث تدفع تلك الدعوات الهدامة إلى مجال الفكر الإسلامى .

ولا شك أن الفطرة الإنسانية فى أعماقها تستطيع أن تلتمس طريقها إلى الدين الحق وتتصل بخالقها الأوحد، ولا شك أن الإلحاد أمر طارئ على النفس الإنسانية وليس من طبيعتها فى أعماق النفس حاجة إلى التدين والاتصال به .

ولا شك أن التدين طبيعة عميقة فى الكيان الإنسانى، والفطرة البشرية وهو أصدق الطرق إلى بناء الفرد وبناء المجتمع، وبناء الإنسانية المتحررة من الخوف والشك والانحلال .

وقد تثير الشبهات ما تثير حول البعث والمعجزات .

ولا شك أن تصور البعث ليس مستحيلا، بل القول باستحالته هو الذى يوجب تناقضا عقليا، لأن البعث هو خلق جديد والذى خلق الإنسان أول مرة قادر على إعادة خلقه بل هو أهون عليه « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده »

أما المعجزات والقول بأنها خرق للنواميس الكونية فالأمر فيها جد يسير، فالله هو خالق الكون وخالق النواميس والذى خلق النواميس قادر على خرقها بل هو قادر على إزالتها جملة .

إن إقرار الحقيقة التى تقوم على وجود الله الخالق لهذا الكون لا يشكل تناقضا عقليا ، بل إنكار هذه الحقيقة هو الذى يشكل التناقض ، فهذا العالم الممكن الحادث المعلول ، هل يمكن أن يكون موجودا بغير علة ولا فاعل !

* * *

وما يوجه إلى الإسلام من شبهات حول القضاء والقدر إنما هو محاولة لانتقاص الإسلام فى أمر من أروع مفاهيمه وأعظمها قدرا ، فإن الإيمان بالقضاء إنما هو قوة دافعة بناءة .

ولقد كان الإيمان بالقضاء والقدر أعظم حافز للمسلمين فى صدر الإسلام على أن يجتازوا مشارق الأرض ومغاربها إلى العالم أجمع مسترخصين أنفسهم فى سبيل الله ، وما ساء فهم الناس فكرة القضاء والقدر ، فأصبحت فكرة جامدة إلا حين فسد فهم القيم الإسلامية ، وأضحت معانيه تفسر تفسيرا جامدا مشوها .

ويقول الدكتور أحمد الحوفى فى هذا المجال :

إن علم الغيب قاصر على الخالق سبحانه «وعنده مفاتح الغيب» والعقل عاجز عن معرفة حقيقة الذات الإلهية وعاجز عن معرفة صفات الله ، وعاجز عن معرفة أحوال الجسم الإنسانى والنفس الإنسانية .

وعلم الإنسان : هو ماض وحاضر وظن فى المستقبل .

أما علم الله فهو أزلى أبدى ، يعلم الأمور المستقبلة علمه للحاضر، وعلم الله يحيط بما كان وبما سيكون ، لأنه هو الخالق ، فهو عالم علما سابقا للأحداث والوقائع فلا يقع فى ملكه حدث إلا موافق لإرادته ، ومن أجل ذلك يؤمن المسلمون بقضاء الله وقدره إيمانا لا يتزعزع ، إيماناً بعلم الله وقدرته وإرادته .

هـــذا الإيمان يعصمنا من الغرور إذا حالفنا نجاح ، ويبعد عنا الخور والضعف واليأس والسخط إذا نزلت كارثة .

لأن المؤمن بالقضاء يصبر على ما نزل به ، ويستمد من صبره قوة على مغالبة عوامل القنوط والاستسلام .

والمؤمن بالقضاء شجـاع لأنه يعلم أنه لن يصيبه إلا ما سبق فى علم الله من موت أو حياة .

والمؤمن بالقضاء أبى عزيز النفس لا يذل لأحد ، والإيمان بالقضاء يحفظنا من رذيلة الحقد والحسد والسخط .

نحن نؤمن بالقضاء لأن الأحداث قبل أن تقع سر محجب عنا لا يعلمه إلا الله ، وليس فى استطاعة مخلوق أن يعلم المقدور .

قال تعالى على لسان نبيه : «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » .

ويقول الحق تبارك وتعالى : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » اهـ .

* * *

ولقد كان المسلم يردد دائما هذه الحقيقة :

أن الذى يعتقد أن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء ، لن يرهب الموت ، ولن يخاف أحداً ، وهو يدافع عن حقه ، ويعلى كلمة أمته ، وبهذه العقيدة واجه المسلمون أعداءهم ، فنالوا منهم ، وحققوا فى تاريخ الإسلام أشرف صفحة من المقاومة وتأكيد الذات .

وهم لن يستطيعوا مواجهة خصومهم دوما، وعلى مدى التاريخ إلا بمثل هذه العقيدة .

---

(٤)

هناك شبهات يرددها خصوم الإسلام ، ودعاة العلمانية ، والفلسفة المادية ، هى محاولة إقران الأنبياء والرسل الذين أنزل الله عليهم كتبه ورسالاته بالعباقرة والمصلحين ، فمن الخطأ المحض وضع الأنبياء فى صف المصلحين ودعاة الحرية والوطنية ، ومن هذا خطأ الزعم بأن الأنبياء « رجال أفذاذ قد ثاروا على معتقدات عصرهم وحرروا أفكارهم ، ووصلوا للحقيقة بإدمان الفكر » .

« ومن شأن هذا أن يخدع السذج [1] من المؤمنين الذين قد يدق على أفهامهم ما يخفى هذا المذهب تحت مظهره البراق من خطر ، فلا يفطنون إلى أنه يجرهم من حيث لا يدرون إلى إنكار الوحى وإلى اعتبار الأنبياء فلاسفة ومفكرين تخضع الديانات التى جاءوا بها للنقد والتعديل ، وللتنقيح والتهذيب .

ثم إن هذا المذهب يدعو الناس - كل الناس - أن يسلكوا هذا الطريق الذى زعم أن النقطة التى بدأ منها الأنبياء وهى الشك

---

(١) عن بحث للدكتور محمد محمد حسين ، وآخر للدكتور محمد أحمد الغمراوى .

فى كل العقائد والآراء وتخطى حرمة كل مقدس مصون ، ولتكن النتيجة بعد ذلك ماتكون ، والذين يذهبون هذا المذهب يركبون الشطط فى تأويل المعجزات وكل ما يتصل بعالم الغيب ، فيقولون مثلا : إن المقصود بالشيطان هو العقل الباطن ، وإن الجنة والنار حالات عقلية نفسية ، وأن الإسراء والمعراج انتقال عقلى وروحى كالذى يحدث فى الأحلام ، وأن قصص القرآن وما جاء فيه من مثل خلق الدنيا وخلق آدم وخروجه من الجنة ليس إلا تمثيلا ، وأن المقصود بإمداد الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - فى قوله تعالى : « وأنزل جنوداً لم تروها » هو قوة الروح المعنوية ، ومن الواضح أن الذى ينكر المعجزة لغرابتها وشذوذها عن المألوف خليق أن ينكر الوحى نفسه ، لأنه أمعن فى الغرابة وفى الشذوذ عن المألوف .

والذى يعتقد حقا أن النبى - صلى الله عليه وسلم - ينزل عليه جبريل مرسلا من عند الله سبحانه وتعالى ، كيف يكبر عليه أن يسلم بما يجرى الله على يديه من غرائب وما يحفه به من أسباب الرعاية التى تخالف مألوف العادة » .

وتشير الباحثة (نازك الملائكة) إلى شبهة أخرى من الشبهات التى تتردد فى حياتنا العقلية الحديثة ، نتيجة إقبالها على قراءة آداب الغرب ونقلها إلى لغتنا ، تقول: لقد أخذنا عنهم فيما أخذنا موقفهم من الدين ، والتقطنا نظرتهم المادية إلى الحياة .

وموقفهم من الدين ، يختلف اختلافا جسيما عن موقفنا نحن ، فإن الدين الإسلامى يرتبط كل الارتباط بالفكر ، وقد قامت حول القرآن أركان اللغة والأدب والفقه بحيث تعد هذه العلوم كلها تفريعات لعلم القرآن ترتكز إليه وتدور حوله ، لا بل إن طلب العلم ونشره قد بقى هو نفسه واجبا دينيا مفروضا ، يؤديه الطالب والعالم قربى إلى الله .

ومن ذلك أن النحوى العلامة ابن مالك كان يخرج ويقف على باب مدرسته ويقول: هل من راغب فى علم الحديث أو التفسير؟ قد أخلصتها من ذمتى .. فإن لم يجد راغبا أو طالبا قال : خرجت من آفـــة الكتمان

وتفسير ذلك أن العربى كان يعتقد أن لله حقا فيما استودع العلماء من فهم وعلم وأنه أخذ عليهم البيان . فلا يصح لهم السكوت عن نشر العلم وإظهار الحق وتعرية الباطل .

أما فى أوروبا فإن الدين يتصف بشىء من الانعزال عن الحياة فلا يرتبط بالأدب والفكر إلا من بعيد .

فالغربى يعد الدين لله وأدبا للحياة ، وكأن الحياة نفسها ليست لله كما يعتقد العربى ، وقد بعد الدين عن الحياة فى الغرب وهو أمر لم يعرفه المجتمع المسلم .

والمسيحية التى نزلت فى بلاد الغرب قدفشلت فى تحويل الغربى تحويلا كاملا عن وثنية آبائه ، فبقى ثنائى المعتقد يصلى لله ويؤمن رغما عنه بآلهة الإغريق ، حتى إنه يقسم فى حياته اليومية (بجو بيتر) كبير آلهة الإغريق،وهو يذهب إلى الكنيسة ولكنه لا يلبث أن يرجع إلى منزله ليقرأ الفلسفات اليونانية ويكتب أدبا طالعه وثنى تتردد فيه أسماءالآلهة الشريرة التى كان يعبدها اليونان والرومان.

وإنما يصف هذه الآلهة بأنهاشريرة لأنها كما قرر (سقراط) نفسه ، لا تتورع عن ارتكاب الشر والجريمة والصغائر ، فهى كالبشر وإنما تتفوق فى القدرة على الإيذاء والظلم ، وبسبب هذه الوثنية الغربية بقى المسيحيون العرب أوثق صلة بالمسيحية الحقة من مسيحى الغرب .

ولقد دعا الغزاة وأعوانهم عبر السنين الماضية إلى أن نحتضن الثقافة الغربية بكل ما فيها دونما تدبر أو مناقشة ، فكان مما أخذناه عنهم هذا الفصل العجيب بين الدين والحياة ، وقد كان لذلك تأثير سيء فى حياتنا وفكرنا ، لأن الإسلام يكاد يكون هو الحياة العربية نفسها فلا نستطيع انتزاع أحدهما إلا بانتزاع الآخر .

فقد كان الإسلام دينا إلهيا وثورة سياسية وفكرية واجتماعية معا ولذلك اهتزت له الأرض اهتزازاً خصبا ، وأحدث انقلابا عميقا فى مناحى الحياة معا .

ولم يترك الإسلام فى حياة العربى شاردة ولا واردة إلا ضبطها وأحصاها ، فقد كان القرآن كتابا شاملا فيه اللغة والأدب والشريعة والأخلاق جميعا ، فبنى عليه تراثه كله .

فإذا فصلنا الدين عن الحياة لم يكن معنى هذا إلا أن نفصل العروبة عن تراثنا وحضارتنا ، ونحب أن نضيف إلى هذا : أن القرآن - باعتباره كتاب الدين الإسلامى والثقافة معا - سيبقى أبداً كتاب كل عربى مهما كان دينه ، ولقد اتخذ الأدب الجديد الذى ينشره اليافعون العرب موقف الغربيين من الدين ، فظهرت

فيه الوثنية مصحوبة بالإلحاد فى أدنى مستوياته ، بدافع التقليد والنقل .

فلا شك أن هذا الإلحاد أوطأ مرتبة من إلحاد مصدره شك يعترى النفس فيضللها ويحيرها ، وقد واكب هذا ابتعاد الجيل اليافع عن القرآن وما فيه من أجواء روحية وكنوز أخلاقية وثروة لغوية وأدبية ، وكل ذلك لا يبشر بالخير فإذا مضينا فيه قطعنا جذورنا الحضارية وأضعنا الروح العربى جملة .

---

(٥)

وأشار كثير من الباحثين إلى الأبحاث التى تتصيد مواطن الشبه والغموض فى الشريعة الإسلامية، وفى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة السلف الصالح ، ليفتن بها الأغرار الذين يدق عليهم وجه الخير والمصلحة فيما يساق من مزاعم ، لأنهم لم يتحصنوا بالقدر اللازم من الثقافة الإسلامية الذى يمكنهم من اكتشاف مواطن الخطأ والتضليل فيما يسوقونه من أباطيل. وأسلوب الهدامين فى ذلك مشهور ومعروف .

فهم يفترضون الفرض بما تمليه عليهم أهواؤهم وأغراضهم ، ثم يلتمسون الأدلة على إقامته من النصوص الإسلامية ، فيأخذون منها ما يؤيدون به مزاعمهم ، بعد أن يبتروه عما قبله ومما بعده ، ويحرفوه عن موضعه ، وينقلوه عن دلالته. ثم يهملون ما لا يتفق مع مزاعمهم ويتجاهلونه .

وينظر القارىء الساذج من المسلمين فيما كتبوا فيجد كثرة من النصوص المسندة إلى مراجع وثيقة ، ولا يتنبه إلى ما فيها من تحريف ولا يتسع وقته لمراجعة ما أحاطها من سياق ، وما حفها من أسباب، فتقع فى نفسه موقع القبول والإقناع . لأنه لا يعرف ـ لقلة بضاعته من هذه الثقافات ـ أن هناك من النصوص الأخرى

التى تنقض هذه المزاعم أضعاف ما ساقه الكاتب ولأنه لا يميز - لضآلة إلمامه بالعلوم الإسلامية ، وطرق رواياتها - بين قويها وضعيفها»

* * *

وأشار الدكتور محمد محمد حسين إلى خطر استخدام نصوص الشريعة الإسلامية فى تبرير أنماط الغرب الفكرية والاجتماعية وهو خطر أشد من تقاليد هذه الأنماط تقليدا أعمى لأن الناس يمكن أن يعيشوا على أمل التخلص من الدخيل إذا قامت فيهم حركة أصيلة للأحياء . أما فى الحالة الأولى - وهى حالة اندماج وتفاعل - فإن إدراك الحدود بين الأصيل والدخيل تدق وتخفى حتى لتكاد لتستحيل ، لأن الناتج من التفاعل سيكون شيئا معقد التركيب ، تختلف خصائصه وصفاته عن كل من العنصرين المكونين له ولأن الناس يدركون فى حالة التقليد أن الذى يفعلونه شىء آخر غير الإسلام .

أما فى الحالة الأولى فسوف يرسخ فى أذهانهم أن ذلك هو التفسير الحق للإسلام الذى يلائم ظروف الزمان .

* * *

ويشير الدكتور محمد محمد حسين إلى خطر آخر من هذه الشبهات المثارة فى مواجهة حقائق الإسلام :

ذلك أن البعض لا يعرض للدين بتصديق أو تكذيب ، ولكنه يقارن بينه وبين ما نوارثته الشعوب المتخلفة من أساطير ، تاركا للقارىء أن يستنتج من ذلك أن الأديان ليست إلا مجموعة من الأساطير .

والتعليل الصحيح لما نجده من اتفاق فى بعض الأحيان بين الأديان السماوية وبين بعض الأساطير مرده إلى أن هذه الأساطير الوثنية هى فى حقيقة أمرها صورة محرفة من أديان سماوية سابقة فالله سبحانه وتعالى يقول : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » .

ومعنى ذلك أن هناك أديانا سماوية ذهب بها أصحابها هذه المذاهب فى التحريف فجعلوا الرسل الذين بلغوها أربابا من دون الله (١) .

---

(١) من بحث للدكتور محمد محمد حسين : اتجاهات هدامة فى الفكر الغربى .

القضية الرابعة

الإسلام والحضارة المعاصرة

(١)

من الشبهات التي تثار حول الإسلام والفكر الإسلامي محاولة إلقاء ظل بالتبعية للفكر اليوناني الإغريقي أو الوثني المجوسي القديم وهي محاولة لا يكف دعاة التبشير والاستشراق عن ترديدها .

وهي دعوة ظالمة وشبهة لا يقوم دليل واحد على صدقها .

ذلك أن لكل نظام اجتماعي فلسفته المعبرة عنه الخادمة لمصالحه ، والفلسفة اليونانية كانت تعبيراً عن طبيعة المجتمع اليوناني وهو مجتمع عبودي قائم على السادة والعبيد ، وكانت الفلسفة اليونانية فلسفة تأملية خالصة تقوم على التجربة .

ولكن المجتمع الإسلامي كان يختلف اختلافا كبيراً عن المجتمع اليوناني العبودي ، كان دولة مليئة بالإمكان والتفتح والامتداد ، وكانت في جوهرها حضارة عملية داخل إطار الإسلام .

يصور هذا المعنى الأستاذ محمود أمين حين يقول :

« عندما ترجمت الفلسفة اليونانية كان من الطبيعى للفكر الإسلامى فى البداية أن يعكف على مناقشتها ، ومدارستها ، وكان من الطبيعى أن يختلف موقف الفكر الإسلامى منها اختلافا بيناً ، وهذا هو ما تحقق بالفعل .

فى البداية كانت محاولة للتوفيق ، ثم قامت معارضة تشمل كافة جوانب الفكر الإسلامى ، وكانت معارضة نابعة من جوهر المجتمع الإسلامى نفسه وحقيقة مصالحه ، وكانت امتداداً للفكر الإسلامى نفسه منذ ينابيعه الأولى فى الفقه ، والأصول ، والنحو والبلاغة ، حتى شمل الفلسفة والفكر بصورة عامة .

وكان من الطبيعى أن يتحقق هذا ، فالفكر الإسلامى منذ بدايته لم يكن يفرق بين النظرة العقلية التأملية ، وبين الممارسة العملية ، بل كان الجانب الأكبر من الفلاسفة أطباء ، ورجال أعمال يتمرسون بمسئوليات فعالية فى جهاز الدولة ، ويقومون بأنفسهم بأشكال منوعة من التجريب العملى .

من خلال هذا التمرس العملى أخذ المفكر المسلم يكتشف قصور المذهب الأرسطالى الشكلى ، وأخذ ينتقد فى (أرسطو) عدم اهتمامه بالتجربة .

وكان من الطبيعى أن يكون الفلاسفة المسلمون رجال عمل وتجربة فلم يكن مجتمعهم مجتمعاً عبودياً كالمجتمع اليونانى .

على أن التوحيد بين التأمل والممارسة العملية دفعت بالمفكر المسلم إلى نتيجة أخرى بالنسبة لفلسفة أرسطو هى أنها خرجت عن حدود النظرة الكيفية الغائية إلى التحديد الكمى .

وفى هذا الاتجاه إلى الكم والتجربة خروج مباشر كذلك على مفهوم أساسى فى منطق أرسطو وهو التعريف .

وخرج المفكرون المسلمون على هذا المفهوم الأرسطالى للحد والتعريف ، وخاصة رجال الأصول والفقه ، وانتهوا إلى نظرة جديدة للتعريف تقربه إلى حركة الواقع .

وكان من الطبيعى أن يؤدى هذا بشكل عام إلى الخروج عن حدود القياس الأرسطالى إلى الحصول على نتيجة عملية ، وأصبحت عملية التجريب العملى ، لا عملية الاستخلاص المنطقى سبيلا من سبل المعرفة .

المهم أن نذكر أنه بهذا « المنهج التجريبى » وبهذه القيم العلمية والكمية وبهذا التوحيد بين النظر والعمل، وبهذه النظرة المتطورة للكون والإنسان ، بهذا كله اختلف الفكر الإسلامى اختلافا

كبيراً عن الفكر اليونانى ، وتناقض معه فى مختلف فروع الثقافة من علم وأصول وفقه وفلسفة عقلية ونظرة إلى الإنسان ، ولم يكن هذا الاختلاف عابراً أو طارئاً أو عفوياً ، وإنما كان نتيجة لاختلاف التكوين الاجتماعى للدولة الإسلامية ، وللحضارة اليونانية التى عبرت عن نهايتها فلسفة أرسطو .

وعلى هذا يمكن القول بأن جوهر الحضارة الإسلامية جوهر عقلى عملى تجريبى حسى .

وملخص ذلك كله أن الفكر الاسلامى كان فى جوهره فكراً تجريبياً ، تجاوز منطق أرسطو وأطل على التجربة العملية واتخذها مصدراً لعلمه وفلسفته .

على أن الشىء الجدير بالذكر هو أن الفكر الإسلامى العلمى هو جوهر الفلسفة الإسلامية وأن الفلسفة الإسلامية بهذا ليست امتداداً للفكر اليونانى بل كانت إضافة جديدة ذات طابع تجريبى كمى ، وكانت نقطة انطلاق - (عبر روجر بيكون ، وديكارت ، وفرانسيس بيكون ، وجاليلو) إلى نشأة العلم التجريبى الحديث .

* * *

وأشار الدكتور (على سامى النشار) إلى جانب آخر من أوجه الخلاف فقال :

« لقد حدد القرآن مسائل ما بعد الطبيعة تحديدا تاما وطلب عدم الخوض فيما خلفها ، طلب منا أن نبحث فى الكون وآفاقه ولكن لا نحاول أن نبحث فى (الجوهر) وذلك لقصور العقل الإنسانى عن التوصل إلى الشىء فى ذاته ، ومعنى هذا أن الإسلام حال دون الأبحاث الميتافيزيقية على طريقة اليونان فضلا عن أن الميتافيزيقا اليونانية هى نتاج العقلية اليونانية وهى تعبير خاص عن ذات مقسرة فى عالم متشائم ، والإسلام ينكر هيمان ذات مفكرة فى التفكير الوجودى ، ولا يوافق على تصوير الكون تصويراً خاصاً ذاتيا مخالفاً لما وضح من صورة عميقة ، ولقد ألهم القرآن المسلمين ميتافيزيقاهم » .

فى حدود هذه النظرة نستطيع أن نفهم الفوارق البعيدة بين الفكر الإسلامى والفكر اليونانى الإغريقى الهلينى الذى ما زالت أقلام دعاة التغريب والغزو الثقافى تحاول أن تصور الفكر الإسلامى صورة منه باللغة العربية كما قال: (أرنست رينان) أو امتداداً له .

* * *

وليس هناك أمر أشد تعارضاً واختلافا كالأمر بين الإسلام والوثنية اليونانية فقد قام الإسلام على التوحيد بينما قامت الفلسفة

اليونانية على عبادة الفرد ، وعبادة القوة ، وعبادة الأجسام .

وليست الوثنية التى يحاربها الإسلام - كما يقول الدكتور محمد البهى - هى وثنية العرب التى كانت قائمة على تعدد الأصنام وبعض الكواكب فحسب ، بل هى وثنية الإنسان على العموم ، وهى تقديس الشخص دون رعاية للمبدأ والمثال . وهى لا تزول من هذا الوجود مادام للإنسان ناحية مادية وأخرى روحية ، وما دام للوجود كله أيضا جانبان : جانب ظاهرى وهو الجانب المادى وآخر مستتر وهو الجانب المثالى أو المعنوى ، ولسهولة انجذاب الإنسان إلى الجانب المادى كان فى حاجة على الدوام إلى الكفاح ضد هذه الوثنية ، وقد هاجم الإسلام الوثنية وهاجم تعدد الآلهة ودعا إلى عبادة إله واحد لا يعرف شخصه ولا تحد حقيقته لأنه فوق الطبيعة وفوق ما فيها من أشخاص .

وقد كافح الإسلام ضد عبادة الأشخاص والذوات المشخصة وما زال بين الاسلام والوثنية صراع من أجل تقديس المبادئ دون الأشخاص ، وعدم الانقياد لفرد آخر دون رعاية لما يحمله من مبادئ أو فكر مثالية ، ولقد كان انقياد المسلمين للرسول لا لأنه محمد بن عبد الله بل لأنه رسول الله : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » .

هذا هو الخلاف الجذرى الواضح بين الإسلام والفلسفة اليونانية، وهناك خلافات أخرى كثيرة أهمها : القيم الأخلاقية فقد كان اليونان يجعلون من العرى مثلا أعلى للجمال . بينما لا يقر الاسلام هذا الاتجاه : ولا يرضاه فى الأدب أو فى المجتمع .

وقد أنكر الإسلام الأساطير وعرف الوضوح ، والصدق وانفتح على الباحات الواضحة المضيئة ، كما ارتفع الإسلام عن استحلال الشهوات واللذات وإن أباح تنظيمها وفق ضوابط وأنظمة تحفظ النفس والجسد ، وتحفظ للمجتمع كرامته وأخلاقيته .

(٢)

من الأخطاء الشائعة ذلك الإغضاء المتعمد عن أثر الإسلام في الحضارة الغربية وفى الفكر الغربى ، فهناك محاولة دائبة لإنكار هذا الأثر وتجاهله .

غير أن كثيراً من المنصفين كشفوا حقيقة الدور الذى قام به الإسلام والفكر الإسلامى فى العلم الحديث والفكر البشرى كله .

يقول العلامة (بريفولت) فى كتابه « بناء الإنسانية » :

Making of Humanity

لم يكن (روجر بيكون) إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأنه تعلم من معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب وهى الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

كان المنهج العلمى التجريبى فى عصر (بيكون) قد انتشر انتشاراً واسعاً ، وانكب الناس فى لهف على تحصيله فى ربوع أوربا ، ولقد كان (العلم) أهم ما جاءت به الحضارة العربية على العالم الحديث ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .

وأن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في أسبانيا لم تنهض في عنفوانها إلا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك المفازة وراء سحب الظلام .

ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوربا الحياة بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما يكون ، وأهم ما تكون في نشأة تلك الطاقة التي تكون ماللعلم الحديث من قوة متمايزة ثابتة، وفى المصدر القوى لازدهار العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا ، أنه يدين لها بوجوده نفسه .

فالعالم القديم كما رأيناه لم يكن للعلم فيه وجود ، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها من سواهم ولم تتأقلم في يوم من الأيام فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية .

وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات، ولكن : أساليب البحث في دأب وأناة وجمع المعلومات الايجابية

وتركيزها والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبي ، كل ذلك ، كان غريبا عن المزاج اليوناني .

أما مايدعى « العلم » فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطرق من الاستقصاء مستحدثة : لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ولتطور الرياضة إلى صورة لم يعرفها اليونان ، وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها « العرب » إلى العالم الأوربى .

ليست هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوربى لم يكن للثقافة الاسلامية تأثير أساسى عليها ، ولكن أهم أثر للثقافة الإسلامية فى العلم الأوربى هو تأثيره فى : « العلم الطبيعى » و « الروح العلمى » وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث والمصدران الساميان لازدهاره .

إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس هو ما قدموه لنا من اكتشافات لنظريات مبتكرة وكشوف مدهشة بل إن «العلم» يدين للثقافة العربية بأكثر من هذا ، إنه يدين لها بوجوده ذاته »

وبعد فإن فى هذه الشهادة كفاية عن أى قول ، ولكنها ليست هى الشهادة الوحيدة فهناك عشرات :

يقول جورج سارطون فى كتابه تاريخ العلم :

« لقد بلغ المسلمون ما يجوز أن نسميه « معجزة العلم العربى »
وقد أوردت كلمة « معجزة » لترمز إلى تفسير ما بلغ إليــــه
المسلمون والعرب من الثقافة والعلم ، ممـا يخرج تقريبا عن نطاق
التصديق .

وليس لذلك شبه فى تاريخ العلم كله . ويجب أن ندرك أن ذلك
التطور الذى لا يكاد يصدق فى العـلم العربى لم يبدأ إلا منـذ
القرن الثانى للهجرة .

ويحاول نفـر من المؤرخين أن يبخسوا قـدر هذا الانتاج
العظيم بادعائهم أنه لم يكن فيه ابتكار ما ، وبأن العرب لم يكونوا
سوى مقلدين ، إن هذا الحـكم ينطوى على خطأ فادح .

وأعظم الابتكارات العربية هى فى مجال الرياضيات والفلك
وعلم الحساب الجديد وعلم المثلثات الجديد » .

وتقول الدكتورة سجريد هونكه فى كتابها « شمس الله
تشرق على الغرب » : يبدوا أن الأوان قـد حان بالنسبة للغرب
لـكى يتحدث بكل صدق وإخلاص عن العرب ، هذا الشعب
الذى أثر بكل عمق فى مجرى الأحداث العالمية والذى يدين له
الغرب والإنسانية جمعاء بالشىء الـكثير .

ولعل التعصب هو الذى حمل الغرب دائما على تشويه منجزات العرب العظيمة ، وطمس مساهمتهم الأساسية فى الحضارة الأوربية. حين كانت أوربا غارقة فى ظلمات العصور الوسطى وجهالتها وقف العرب على أبوابها يرفعون مشعل الحضارة طوال سبعة قرون لشد ما يغبن حقهم من يكتفى بالقول أنهم نقلوا التراث القديم إلى العالم العربى بعد ما حفظوه من الدمار ، فذلك يعنى فى الواقع التقليل من قيمتهم ، والسكوت عن الأمور الجوهرية فى عملهم الحضارى وجعلهم مجرد وسطاء ليس غير والحقيقة أن سائر مناحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى الغرب مدموغة بآثارهم .

إن قواميس اللغات الأوربية تضج بالكلمات العربية سواء ما يتعلق منها بالحاجات اليومية أو الأطعمة أو الألبسة أو العقاقير .

وكذلك الأمر فيما يتعلق بالملاحة وفنونها واصطلاحاتها .

وكان العرب يعرفون النجوم وحركاتها ويفهمونها أعظم من الإغريق والرومان ويسمونها بأسمائها ويجمعونها فى كوكبات تمثل مشاهد حياتهم اليومية .

وكان العرب يسعون إلى اكتشاف الجواب الوحيد على أية مسألة معينة ولا يكتفون من أجل ذلك بمشاهدة واحدة أو عشر مشاهدات ، بـــل يقومون بالمئات منها ، وقد حسنوا دون انقطاع ما يملكون من أدوات المشاهدة وبذلوا عناية أعظم فى استقصاء السماء بحيث توصلوا إلى اكتشافات لا حصر لها ، منها تحديد مدارات الشمس والقمر والنجوم بصـــورة متزايدة الدقة .

لقد كان النور الذى أحدثته الشرارات المنطلقة من العبقرية العربية فائقا للغاية .

ولعل الطب هو أهم مجالات التفوق العربى .

فى تلك الأيام كان منح البركة والتعاويذ والصلوات هى أساليب العلاج الرئيسية التى يطبقها أطباء الغرب فى سبيل تخليص البشر من أدوائهم الجسدية !

إن مآثر العرب الخالدة لتقدم فى تطويرهم بواسطة المشاهدة والتجربة للمعطيات العلمية وإن العرب هم مبدعو « التجربة » بالمعنى الدقيق للكلمة وهم الخالقون الحقيقيون للاستقصاء العلمى ، فقد كانوا أول من جعل من الوقائع المعزولة عن متنها نقطة

الانطلاق لكل بحث ، وعندئذ أصبح الارتقاء الصبور من الخاص إلى العام ، وأصبحت الطريقة الاستقرائية هى الطريقة العلمية الأساسية .

إن الفكر الغربى لم يستيقظ من ذلك الحذر الذى أثقل عليه طوال قرون بل طوال ألف عام ، ويفرد جناحيه لكى يطير إلا بعد ما امتلك المعجزات العربية فى الميادين التقنية والإدارية ثم تبنى هذه المعجزات على المستوى الحضارى » .

القضية الخامسة

الإسلام والنفس الإنسانية

(١)

حاولت قوى الاستعمار والغزو الثقافى أن تفرض على الفكر الإسلامى فى مجال النفس والأخلاق مفاهيم تختلف اختلافاً أساسيا مع مقومات هذا الفكر، ومتعارضة أساسا مع مقررات الإسلام!.

وقد ظهرت نظريات متعددة فى السنوات الأخيرة تجرى مجرى الفصل بين الأخلاق والسلوك ، وبين الدين والمجتمع ، وتحاول أن تفرض مفهوما غريبا كل الغرابة على النفس العربية الإسلامية التى تستمد شخصيتها وذاتيتها ومزاجها النفسى والاجتماعى من الإسلام الذى صاغها منذ خمسة عشر قرنا .

وتقوم هذه النظريات على إعلاء الغريزة واعتبارها مصدرا أساسيا لكل تصرفات الإنسان والدعوة إلى إطلاقها والتحذير من أخطار مايسمى الكبت والأمراض النفسية .

وكذلك الدعوة إلى تأكيد الذات وتحقيقها بحرية التصرف دون تقدير «للضوابط» التى تحفظ كيان الفرد أو «الحدود» التى تحفظ

علاقات الأفراد وذلك فى مواجهة خطر الموت أو الحرب الذرية .

وقد تعددت هذه النظريات واستشرى خطرها وأثرها فى الفكر العربى والمجتمعات الغربية تحت تأثير عوامل تاريخية بعيدة المدى فرضت هذا التيار منذ وقت بعيد .

وكان ذلك نتيجة للصراع القوى الذى قام بين المسيحية وبين الفلسفة اليونانية ، وفى مواجهة كشوف العلم ومدى تقبل الطبيعة الأوربية للدين ، ومدى نتائج ذلك الصراع الضخم بين العقائد السماوية والفلسفات الوثنية ، وما جرى من تحريف واضطراب فى قيم هذه العقائد .

ويصور الدكتور (محمد البهى) هذه الأزمة الضخمة فى الفكر الغربى والمجتمعات الغربية فيقول :(١) نشأت هذه الفلسفة فى المجتمع الأوربى فى القرن التاسع عشر ، وكانت نشأتها نتيجة صراع بين ما للإنسان كإنسان ، بغض النظر عن قوة أخرى خارجة عنه ، وبين الإنسان كرسول وكمبشر بقوة أخرى خارجة عن الإنسان وذات صلة وثيقة بتوجيهه ، نشأت نتيجة صراع بين الفلسفة المثالية الإنسانية ، وبين الاتجاه الإلهى فى الكنيسة الكاثوليكية . وقد كان صراعا مريرا وطويل الأجل .

---

(١) « الإسلام والفلسفات المعاصرة » : للدكتور محمد البهى .

والفلسفة المثالية أو الفلسفة الإنسانية تقصد إلى الغض من رسالة الوحي أو بالأحرى إلى الغض من رسالة أولئك الذين يتحدثون باسم الوحي ، وهم رجال الكنيسة ، ولم يقصدوا إلى ذلك إلا بعد ما عابوا خطوات الكنيسة في سبيل توجيه الفرد والمجتمع الأوربي .

فالكنيسة كانت تملي إملاء ما يعتقده الفرد وما يقوله وما يسير فيه في جانب البحث والفكر والسلوك ، وكانت تتخذ من نفسها وسيطا في تحديد مصائر الأفراد وفي صلتهم بالله ، وكانت تعطي لهم من صور الاعتقاد وتطالب إليهم من أداء الرسوم ما يقف عنده العقل الإنساني مفكرا ومتسائلا : لماذا ؟ ثم لا يستطيع أن يجيب على تساؤله هذا ولا أن يحصل على جواب له من المختصين بشئون رسالة الوحي وهم رجال الكنيسة ، فصكوك الغفران ، وعقيدة التثليث ، ورسوم كثيرة في العبادة ، وامتزاج الطبيعة الإنسانية بالطبيعة الإلهية ، أو حلول ما لله فيما للإنسان كان دائما محل تساؤل من العقل الإنساني الخاضع لإيمان الكنيسة .

ولذا نشدت هذه الفلسفة المثالية الحرية ، نشدت حرية الإنسان في تفكيره وحريته في تخطيط طريق سلوكه ، وحريته في تحديد مصيره ، وطلبت إلغاء اعتبار صلة الإنسان بقوة أخرى تسمى ما تسمى من أسماء ، أو تنعت بما تنعت من صفات .

وكانت ترى أن الحرية هى كل شىء ، وجعلت من الإنسان سيداً لنفسه وسيدا على ماعداه فى كونه ، خاصته ـ كما تقول ـ من الرق فى التأثر بغيره وفى الاندفاع فى طريق لم يرسمه الإنسان بنفسه ، ومن هنا سميت بالفلسفة الإنسانية .

ولأنها عظمت حرية الإنسان والقيم الإنسانية الأخرى ، وهى قيم تتصل بطاقاته وإمكانياته فى الخلق والإبداع ، سميت فلسفة مثالية .

ولأنها أنكرت ماعدا الإنسان فى وجود الإنسان ومحيطه ، واشتبكت فى صراع وفى كفاح مع الكنيسة وتعاليمها ، ورمت الكنيسة بالجمود والرجعية وباسترقاق الإنسان واستذلاله ، ورمتها الكنيسة بدورها بالإلحاد والكفر والوثنية لأنها بدلا من أن تؤمن بالله آمنت بالإنسان ، وباستطاعته فى الخلق والإبداع ، وطال الصراع بين الاتجاهين واستغرق القرن الثامن عشر كله .

وجاءت الفلسفة المعاصرة ، وهى الفلسفة المادية الواقعية ودخلت فى الصراع مع الفلسفة الإنسانية المثالية ، ومع الكنيسة وتعاليمها ، ورمت الفلسفة المثالية بأنها فلسفة خالية من حقائق الواقع ، وأنها جوفاء فارغة لاغنى فيها ، كما رمت الكنيسة وتعاليمها والدين عامة بالرجعية والتخلف والجمود ، ونعتت نفسها

بالتقدم والتطور، وأمعنت فى تأييد ما نعتت به نفسها وما وصفت به غيرها من اتجاه فلسفى أو دينى .

وهكذا أخذت الفلسفة المادية تذيع دعواها المضادة للقيم التى جاءت بها الأديان والشرائع السماوية معارضة بها كل قيمة وكل مفهوم وخاصة فى مجال الأخلاق والنفس والتربية وتنظيم المجتمع وعلاقات أفراده ونظام الأسرة .

وكان أبرز هذه الدعوات : الفرويدية والوجودية .

وإن كان من وراء هذه الدعوات عشرات من النظريات والدعوات التى تقوم فى مجموعها على أساس الاستمداد من الوثنية اليونانية والتى يمكن أن توصف فى مجموعها بأنها تحول خطير جاء نتيجة التحدى الصهيونى اليهودى العالمى الذى ارتبط تاريخه بظهور هذه المذاهب جميعا فى مجالات الاجتماع والنفس والأخلاق .

ثم كان أخطر ما فى هذا التطور وهو انتقال ميدان المعركة بين العقائد السماوية والنظريات الفلسفية إلى العالم الإسلامى فى ظل نفوذ الاستعمار ، وضغط القوى الطامعة فى السيطرة ، وواجهتها الحركة الصهيونية التى تقف وراء مخططات الغزو الفكرى والتغريب .

ولا شك أن المسلمين والعرب يواجهون اليوم حملة ضارية من أخطر حملات الحرب النفسية والتشكيك وتشويه المفاهيم والقيم وقد زادت هذه الحملة عنفا بعد (نكسة ١٩٦٧) واحتلال القدس

وهى تستهدف التأثير على أمتنا وحملها على الاستسلام والهزيمة ، وإذا كانت أمتنا قادرة دائما على كشف هذه المخططات واعية لهذه المؤامرات ، فإن من أخطر ما يواجهها الآن هو الحرب فى داخل القيم .. هذه القيم التى هى السلاح الوحيد والأقوى فى مجابهة الغزو ومواجهة العدو .. ذلك أن محاولة تحطيم مقومات أمتنا النفسية والأخلاقية والدينية إنما هو الطريق إلى إخراج أجيال ضعيفة مهزوزة العقيدة ، رخوة طرية لا تستطيع احتمال المقاومة والوقوف فى وجه العدو .

ولا شك أن أبرز أوجه الخلاف بين فكرنا الإسلامى وبين هذه الفلسفات هو :

أولا : أن الإسلام يربط بين الدين والأخلاق فى مختلف مجالات الاجتماع والاقتصاد والسياسة .

ثانيا : قيام الضوابط فى الإسلام كأساس لبناء المجتمع ، بينما تهدف الفلسفة المادية الوافدة إلى تجريد الفرد من كل الضوابط .

ثالثا : قيام الإسلام أساسا حول مفهوم الإنسان على أساس تكامل بين الروح والجسد ، وتوازن بين الدنيا والآخرة وإقرار كامل بالبعث والجزاء والمسئولية الفردية ، وأن الموت ليس هو نهاية الحياة .

رابعا : إعلان الجانب الجسدى والحيوانى فى الإنسان والإقرار بوجوده ، والدعوة إلى تنظيمه .

وربما كانت صيحات الجنس الغربيـة هى رد فعل للتعاليم الرهبانية القاسية التى قامت على بغض الجسد والإسراف فى كبح رغبات البدن الطبيعية ، بينما يوازن الإسلام بين الروح والجسد ، ويفتح للرغبات الحسية آفاقا كريمة لتحقيقها .

* * *

هـذا ومن الأمور الواضحة المسلم بها أن آراء الفلاسـفة ليست إلا نظريات ، وهى ليست بذلك علمـا يقينيا قائما على التجربة ، فالتجربة لا توجد إلا فى مجال العلم وحده ، أما فى مجال النفوس والمشاعر والعقول ، فإن كل مايعرض لها ليس إلا نظرية فرضية تصح وتخطىء ، فمن قصر النظر الإيمـان بها واعتناقها كحقيقة واقعة .

والنظريات الفلسفية تتغير من فيلسوف إلى آخر ، ومن عصر إلى آخر ، ومن بيئة إلى أخرى ، وهذه النظريات قائمة بأصحابها وعصورهم وبيئاتهم ، وهى نوع من رد الفعل لظروفهم وواقعهم ولتحديات مجتمعاتهم .

ولا نستطيع أن ننسى هنا حقيقة أساسية قـد ثبتت بمراجعة

تراجم أصحاب النظريات الفلسفية ، فقد ثبت أن معظمهم كانوا مصابين بأمراض وعاهات لا تضع أحدهم فى صف الإنسان السوى (ففولتير) كان مريضا بالصدر ، (ونيتشه) كان مضطرب العقل وقد جن جنونا حقيقيا فى آخر أيامه ، (ومارسيل بروست) كان مصابا بحالة نفسية غريبة ، وكان يعانى اضطرابا عصبيا مستديما (وبيكاسو) كان من المجانين الخطرين ، (وبودلير) كان مضطرب العقل والنفس ، (وفرلين) لم يكن يفيق من الخمر ، وكان (فرويد) يقاسى عقدة الاضطهاد واضطراب النفس ، (وسارتر) كانت لأولياته القاسية أثرها العنيف على مزاجه النفسى وآرائه .

(٢)

لم تكن آراء النظرية الفرويدية إلا مجموعة من الافتراضات والتقديرات التى كانت ثمرة عدة مصادر :

أولا : تجارب (فرويد) مع المرضى والمصابين بالاضطراب النفسى وقد قصر أبحاثه عليهم أربعين سنة فلم يلتق فى دراسته بأى شخصية سوية .

ثانيا : اتخذ (فرويد) من دراسة نفسه وطفولته قاعدة عامة للبحث وعمد من خلالها إلى استخلاص قوانين عامة بينما لم يكن فرويد إلا فرداً يعيش فى مجتمع يضطهد اليهود وينتمى إلى أقلية مكروهة وأقل ما ينسب إليها : حب المال والتعصب والطموح الاقتصادى .

ثالثا : كان (فرويد) نفسه مريضا ، فقد ذكر الدكتور (إيرنست جونز) أنه كان خلال طفولته ينسى نفسه فى الفراش، وكان فى شبابه ينسى الأسماء ، وكان يدخن عشرين سيجارا فى النهار ليهدئ من سوراته العصبية ، وكان دائم العزلة ولا يسمح لأحد أن يصاحبه طويلا .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن نظرية (فرويد) لم تكن هى الثمرة الحقيقية لمدرسة التحليل النفسى ، ولكنها كانت وجهة نظر منها ، حيث اختلف معه شريكاه فى النظرية (ادلر ويونج) اللذان رفضا إقرار وجهة نظره فى إعلاء الجنس فانفصلا عنه .

وكان ما ذهب إليه (فرويد) أن الإنسان فى جوهره حيوان كغيره من الحيوانات وأن غريزته الجنسية هى الأساس الأول لسلوكه فى الحياة .

وأن غرائز الإنسان هى التى تحكمه وتسيطر على نشاطه وأن الروح لا وجود لها على الإطلاق ، وأن الضمير والدين والأخلاق والقيم العليا فى حياة البشرية تنشأ من عقدة الجنس .

فهو على الجملة يفسر النفس والحياة كلها من خلال الجنس .

* * *

أما (ادلر) فكان يرى أن الشعور بالنقص هو أهم فى الأمراض العصبية من الأمور الجنسية التى بالغ (فرويد) فى تصوير خطرها وعنده : أن الحقيقة الأساسية فى الأمراض العصبية هى الشعور بالنقص ، وكل إنسان يتمتع بإرادة أساسية فى القوة ، وبدافع ملح نحو السيطرة والتفوق ، فإذا وجد أنه ينقصه شىء ينساق إما إلى الموت أو نحو جعل نفسه متفوقا بطريقة ما . وعنده

أن حافز تأكيد الذات وليس الدافع الجنسي هو القوة السائدة الإيجابية فى الحياة ، لذلك فهو يتعرض للتثبيط من قبل محيطه ومن قبل حساسية الفرد الخاصة ، وهكذا يكون هذا الحافز منبع كل إنتاج من جهة ، كما يكون مصدر السلوك الخاطىء ، وعدم التلاؤم من ناحية أخرى .

ولا ينكر (ادلر) أهمية الدافع الجنسي و لكنه يعتقد أنه ليس له تلك الأهمية الشاملة فى حياة الطفل التى ينسبها إليه (فرويد) .

وعند (ادلر) أن التفوق والسيادة بحسبانها هى الغريزة السائدة فى الإنسان تجد وسائل تحقيقها بغير الحب الجنسي .

ويرى (ادلر) أن لكل إنسان قصداً فى الحياة، وأن لكل إنسان تقريبا نقصا جسميا أو اجتماعيا، وأن العواطف لا تسوق الإنسان وإنما الإنسان هو الذى يخترع العواطف وأن قصد الإنسان فى حياته هو موضوع أحلامه وخواطره ، وقد يكون أحيانا سببا لأمراضه .

وعنده أيضا أن هذا النقص الجسمى أو الاجتماعى مع الرغبة الملحة فى التفوق، هى التى تدفعنا إلى أن نعتاض عنها بكفاية أخرى، ويرى (ادلر) أن النقص يكاد يكون هو السبب الأساسى للنبوغ لأنه يبنى الشخصية من جديد، ويحث النفس على التطلع والاستكمال[1]

(١) عن بحث هام عن فلسفة (ادلر) للدكتور (فاخر عاقل) .

وقد عارض كثير من العلماء ما وصل إليه (فرويد) .

يقول (كارل فلوجل) فى كتابه : (الإنسان والأخلاق والمجتمع) :

« إن مكتشفات التحليل النفسى ونظرية (فرويد) فى ميدان الغريزة الجنسية قد صدمت شعور كثير من الناس فهم يشعرون أن علماء النفس حين يحاولون فهم البواعث التى ترتكز عليها القيم الخلقية والدينية والجمالية ، قد يحطمون هذه القيم عينها بل لعلهم يعملون فعلا على تحطيمها » .

وحذر (فلوجل) من نتائج هذه الأبحاث وخاصة ما يتعارض منها مع النظم والعقائد وقال :

« ربما كان علماء النفس قد يكونون هم أنفسهم من المصابين بتلك العقد التى يحلو لهم الحديث عنها ، ولذلك جاءت معظم أحكامهم مشوبة بالهوى ، قائمة على معرفة مبتسرة ، وقال: إن علم النفس علم مهمته مقصورة على وصف حقائق الحياة العقلية وتصنيفها فلا شأن له بالقيم ذاتها » .

وقد أكد كثيرون من الباحثين ، ومنهم من تابع (فرويد) فى كثير من رأيه ونشر فكره فى اللغة العربية ،

إن ما كتبه (فرويد) لا يمكن أن يسمى علما ، وإنما أكثره فلسفة وأقله علم .

* * *

وأشار كثير من الباحثين الذين تابعوا مناهج النفس والتحليل النفسى إلى أن نظرية (فرويد) فى حد ذاتها ليست إلا وجهة نظر معينة لم تثبت طويلا فى مجال التجربة . وقوامها قوله : « إن معارضة رغبات الطفل فى صغره تؤثر فى تصرفاته إذا كبر » .

وقد عارض هذا الرأى علماء الإحصاء ، وعلماء البحث النفسى والاجتماعى الذين أعلنوا بعد دراسات طويلة بضرورة استخدام (الضرب) كوسيلة لتقويم الطفل ، ووصل العلماء إلى ما يناقض نظرية (فرويد) مناقضة تامة ، ووصلوا إلى أن مسلك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل غير البيئة والوسط والحالة الاجتماعية فلا سبيل لإخضاع تربية الطفل لنسق واحد .

* * *

كما عارض (فرويد) كثير من الباحثين فى مجمل آرائه ، وقالوا : « إن (فرويد) أقرب إلى المتنبئين منه إلى العلماء

وإنه يرمى بنظرياته وآرائه دون أن يقدم لها البرهان العلمى أو السند الواقعى .

وإنها تقوم فى أغلبها على الافتراض ، ثم يصدق ما يفترض ، فيبنى عليه ، وكأنه حقيقة علمية لا يأتيها الباطل ، وفيما يتعلق بالغرائز وهو يسميها الدافع الجنسى ، فإن الدراسات العلمية قد أثبتت بما لا يقبل الجدل : أن الدافع الجنسى يأتى فى مرتبة أدنى من كثير من الدوافع الأخرى كالدافع إلى الهواء أو الشراب أو الطعام .

ثم إن الدافع الجنسى يخضع للتربية بمعنى أننا نستطيع تربية الإنسان على العفة بحيث يضبط دافعه الجنسى ويتحكم فيه ، وبذلك تكون العفة أمراً ليس ممكنا فحسب بل ضروريا ، وقد أمكن تنظيم تصريف الشهوة والتسامى بها بكثير من الوسائل كالرياضة الجسدية أو الروحية أو الشعر أو الموسيقا .

* * *

ويرى العلماء المتخصصون فى مجال النفس أن نقطة الضعف فى (فرويد) « كعالم » أنه اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة عامة ، وحاول عن طريقها الوصول إلى قوانين شاملة ، بينما وهو يهودى يعيش فى (النمسا) المتعصبة ضد اليهود ، فكيف

يمكن أن يتخذ من وضعه كمضطهد فى مجتمعه قاعدة لنظرية يطبقها على الإنسانية كلها .

والمعروف أن كل فلسفة فى الحقيقة إنما هى رد فعل لنفس الفيلسوف وعصره ومجتمعه ، وقد عرف عن (فرويد) أنه كان مريضاً ، وأنه كان يمر بأزمات نفسية وهو يعالج « مريضة » تتردد عليه بالهوى الجنسى هى « سيسلى » المصابة بعقدة (أوديب) فبينما كان (فرويد) يقوم بعلاج هذه الفتاة تكشف له عن نفسه أنه مصاب بعقدة (أوديب)،وأنه كان يتجه إلى أمه ويغار من أبيه وأنه اتهم أباه ظلما بجريمة أخلاقية رهيبة .

إن أسطورة (أوديب) الإغريقية التى تتحدث عن أن أباه ارتكب جريمتين فقتل أباه ، وارتكب خطيئة أخرى ثم عاقب نفسه بأن فقأ عينه ، هذه الأسطورة جعلها (فرويد) حقيقة يؤمن بها .

ومن أجل هذا أعلن كثير من الباحثين وفى مقدمتهم الدكتور (ناتان كلاين) نبذ طريقة (فرويد) فى العلاج النفسى والعقلى . هذه النظرية التى ترجع جميع الاضطرابات النفسية إلى أسس جنسية بحتة ، وقال : إن هذه النظرية ليست إلا معولا هادما لعقول الشباب ، ومخدرا مميتاً لنفوس أبناء الشعب .

وقد حلت نظرية (إيفان بافلوت) محل هـــذه النظرية . ومؤداها أن البيئة هى المسئول الأول عما يصيب الإنسان من انحراف نفسى أو عقلى .

هذه هى بمجمل آراء الغربيين فى نظرية (فرويد) ، إذن فلماذا وهى النظرية الفاسدة المهلهلة إلى هـذا النحو استطاعت أن تشق طريقها فى عنف وتكتسح كل النظريات وتلتحق بالجامعات والمناهج العلمية حتى فى بلاد العالم الإسلامى ، وهى نظرية غريبة عنه كل الغرابة ، وعنده من مناهجه فى النفس ما يتفق مع ذاتيته وقيمه وتراثه النفسى والاجتماعى .

---

(٣)

كشف الدكتور (صبرى جرجس) فى كتابه (التراث اليهودى الصهيونى فى علم النفس ونظرية فرويد) عن السر فى هذا التركيز الذى قامت به القوى المسيطرة على الإعلام والآداب والفنون فى الغرب على نظرية (فرويد) واحتضانها على هذا النحو الغريب بالرغم من أنها لم تكن صحيحة علمية ، وفى نفس الوقت خفتت أصوات النظريات الأخرى المعدلة والمصححة .

يقول الدكتور (صبرى جرجس) :

لفت انتباهى حقيقة كبرى : تلك هى العلاقة الوثيقة بين : (فرويد) رجل العلم والتحليل النفسى والفكر العالمى من ناحية وبين التراث اليهودى الصهيونى والصهيونية والعمل السياسى الدينى العنصرى من ناحية أخرى ، وكما تبدى لى ليست علاقة مصادفة ولكنها علاقة أصل ومسار وهدف .

وأشار إلى أن فرويد وأصحابه الذين حملوا لواء فكرته من بعده كانوا جميعا من الصهيونية : (ساخس ، ورايك ، وسالزمان ، وزيلبورج ، وشويزى ، ووتيلز ، وفرانكل ، وكاتز ، وفينكل) .

وأشار إلى عدة عبارات وردت فى كتابات يهودية لفتت نظره إلى مايراه الآن من علاقة بين الصهيونية ونظرية (فرويد) .

وذلك ما أشار إليه «باكان» فى بعض خفايا التراث اليهودى الصهيونى لها علاقة بالتحايل النفسى بل إلى ما ذكرته صراحة الكاتبة (ترود ، وايز ، دوز ، مارين) عن كيف تحتقر اليهودية الصهيونية العقل الغربى مزيفة فى سبيل ذلك وقائع الماضى وأحداث الحاضر ، آمنة بعد ذلك من الافتضاح ، ومطمئنة آخر الأمر إلى التصديق .

ثم يتساءل الباحث كيف لم ينتبه أحد وقد ناهز عمر التحايل النفسى الفرويدى سبعين عاما؟وكيف لم ينتبه أحد إلى هذا الأمر؟ وكيف فاتت هـــذه العلاقة بين الفكر التحليلى والفكر الصهيونى ، جميع من شغلهم التحليل النفسى من تابعـــوه ومن نقدوه ؟

ويقول : إن مفاهيم التحليل النفسى قد قدمت فى أواخر القرن الماضى فى إطار علمانى ، ثم ما لبثت الأبواق الخفية والمقنعة للدعاية اليهودية الصهيونية أن أحاطت هذا الفكر وصاحبه بهالة من النزاهة الفكرية ، منعت حتى أعنف معارضيه

من أن يستريبوا حتى فى أصوله وإن أنكروا مفاهيمه ، وذلك على الرغم مما تسرب فى كتابات (فرويد) وأصحاب فكره من عبارات تكشف عن يهودية صهيونية واضحة التعصب .

وقد فات مدلول هذه العبارات الأكثرين من الناس ، حتى رفعت الصهيونية العالمية كل الأقنعة التى تتستر وراءها وظهرت واضحة لا خفاء فيها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية من ناحية ، وحتى انصرف أحد أبنائها : (دافيد باكان) ينقب فى حفريات التراث اليهودى الصهيونى محاولا الربط بينه وبين الفكر الفرويدى .

ويقول الدكتور (صبرى جرجس) : إن الفكر الفرويدى المنبعث أصلا من التراث اليهودى والصهيونى كان يهدف أساساً إلى تقويض الأسس التى تقوم عليها حضارة الغرب ، وإن هذا الفكر لم ترد به أية دعوة انحلالية صريحة (وكذلك الوجودية) وإنما كانت الإيحاءات الانحلالية تتخلل المفاهيم الفرويدية ، ثم قامت أجهزة الإعلام الصهيونى بتقديم هذه المفاهيم لتنظيم الأدب والفن على نحو يغرى الناس بالتحلل وييسر لهم سبله .

والمعروف أن الدعوة الضمنية وخاصة إذا مست (قيما)

بحرص الناس على بقائها وقد تكون أشد فاعلية فى زعزعة إيمانهم بها من الهجوم الجرىء السافر عليها .

ويلاحظ الدكتور (صبرى جرجس) أن التحليل النفسى (الفرويدى) يكون لدى أصحابه وحدة عضوية وأيدلوجية إما أن تقبل كلها أو ترفض كلها ، ولا سبيل فيها إلى التجزئة ، ثم يصل الباحث إلى الحقيقة التى تقول بأن هناك علاقة أكيدة بين نظرية (فرويد) فى النفس التى هزت الفكر الإنسانى كله وأثرت فيه وبين الصهيونية ومخططاتها ، وأن هذه النظرية وتطوراتها تسير جنباً إلى جنب مع المخطط الصهيونى فى مجالاته المختلفة عاملة على تحقيق الأهداف الصهيونية .

وإن التحليل النفسى الذى ابتدعه (فرويد) مع ظهور الحركة الصهيونية منذ سبعين عاما ، لم يكن « علما مجردا » ولكنه وثيق الصلة فى جوانبه المرضية والحضارية معا بالفكر اليهودى الصهيونى الذى ظهر فى التراث منذ عهد التوراة وما بعدها ، وأنه من أجل ذلك سخرت الصهيونية اليهودية حربها الإعلامية والدعائية لنشر مفاهيمه والدعوة له فى أوسع نطاق مستطاع حتى أصبحت (الفرويدية) من أقوى العوامل أثرا فى التوجيه الفكرى والخلقى لعالم الغرب ، وقد كان (فرويد) يهوديا

حقا ، وعضوا عاملا ونخريا فى بعض المنظمات وصديقا شخصيا (لهرتزل) .

وعندنا أنه لا يستبعد أن يكون (هرتزل) هو الذى أشار عليه بهذا العمل ضمن مخطط الصهيونية السياسى والاجتماعى للسيطرة على الحضارة والمجتمعات العالمية .

ويقول الدكتور (صبرى جرجس) أخيرا : « إن العلاقة العضوية والمصيرية والمصلحية بين اليهودية والصهيونية والاستعمار الامبريالى من ناحية وبينها وبين التحليل النفسى الفرويدى من ناحية أخرى قد جعلت من الحركات الثلاث « ثالوثا » قوامه العنصرية ، وروحه الاستعلاء ، ووسيلته الإفساد ، وهدفه الاستغلال ، وهو بشكل يواجه البشرية ومستقبلها » .

ويمكن العودة إلى ما دعت إليه الصحافة الصهيونية فى أعقاب عدوان يونيه ١٩٦٧ حين طالبت بالمزيد من الحرب النفسية ضدنا ودعت إلى المضى فى استخدام علم النفس (الفرويدى طبعا) أعمق وأدق ، وذلك لأن علم النفس علم يهودى وخليق باليهود بصورة أن يكونوا أقدر الناس على استخدامه .

ولكى تكتمل الصورة لابد أن نورد هنا ما جاء فى بروتوكولات حكماء صهيون من إشارة مماثلة: قالت البروتوكولات:

« لقد رتبنا نجاح (دارون ، وماركس ، ونيتشه) بالترويج لآرائهم وأن الأثر الهدام للأخلاق الذى تنشئه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد » . وقالت البروتوكولات :

« يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان فتسهل سيطرتنا إن (فرويد) منا ، وستظل تعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى فى نظر الشباب شىء مقدس ، ويصبح همه الأكبر إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه » .

وبروتوكولات حكماء صهيون ترسم مخطط السياسة الصهيونية اليهودية للسيطرة على العالم وقد كتبت عام ١٨٩٧ .

---

(٤)

أما النظرية الثانية التى تحاول أن تواجه الفكر الإسلامى والمجتمع الإسلامى بقيم ومفاهيم تتعارض مع أصول هذا الفكر ومقوماته المستمدة من القرآن والقائمة على التوحيد ، فهى النظرية الوجودية التى ترتبط ارتباطا وثيقا بالنظرية الفرويدية وتكاد تكون ثمرة لها امتداداً من الفلسفة المادية فى تطورها وغايتها .

فالفلسفة المادية : لا تسلم بوجود الروح ولا القوى الغيبية وهى لا ترى أن القيم الاجتماعية العقلية والتعاليم الروحية قيما باقية لا يعتريها التبديل والتغيير ، وهى ترى أن الدين ليس فطرة ، والجريمة ظاهرة سوية ، والزواج ليس من الفطرة ، والجنس هو الدافع الوحيد للشخصية ، ومفهوم الإباحة والجنس هما أبرز دوافع الإنسان ويجرى هذا الاتجاه كله من امتداد عنوان « الإنسان حيوان » .

وتقوم النظرية الوجودية على أساس : رفض الحياة والقول بالعدمية وهى تربط نفسها بالدعوة إلى تحرير الإنسان من كل القيود ، كما تقوم النظرية الفرويدية لتحرر الإنسان من الكبت .

فالنظريتان تقومان حول أخلاق الإنسان ونفسيته وتستهدفان تدمير وجوده بتحرره وإطلاقه من كل القيم والمقومات والضوابط .

والوجودية فى نظر الباحثين فى مجال الفلسفة الغربية هى « فلسفة (١) عدمية سلبية من ألفها إلى يائها ، تود أولا وقبل كل شيء أن تقتل التفكير وتشل القدرة على استخدام العقل ، فهى تقول يجب أن تقتل فى نفسك العقل والمنطق إذا أردت لنفسك « خلاصا » إذ أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بهما » « والمذهب الوجودى » قائم على عدم الاعتراف بالعقل ،وعدم الاعتراف بالعقل هو عدم اعترافه بكل شيء ، ولا ينتبه إلا إلى ذلك الجزء النفسى الذى يملك على الإنسان حسه ونفسه جميعا ، وإلى ذلك الشعور بالقيء أو الغثيان الذى يسيطر عليه عندما يواجه العالم.

وتنادى الفلسفة الوجودية بنفى الألوهية والدعوة إلى عبادة الذات، فالإنسان فى نظرها يجب أن يستمتع بوجوده كل الاستمتاع ويطلق لحريته العنان ، فيحقق لنفسه أكبر نصيب من المتع والملذات باعتباره إله نفسه وسيد كيانه .

وفى رواية الذباب « لسارتر » يقول : أورست مخاطبا « جوبيتر » رب الأرباب :

---

(١) الاستاذ (يحيى هويدى) كتاب عن الوجودية .

« سيدى الإله : كان عليك ألا تخلقنى حراً ، وما إن خلقتنى حتى انفصلت عنى وتخليت عن نسبتى إليك فإنما لم أعد ملكا وليس ثمة فى السماء من خير أو شر وإنسان يصدر إلى الأوامر لن أعود أخضع لشرعك ، ولست محمولا على الخضوع لغير شريعتى ، أنا ، لأننى إنسان ياجوبيتر ، وعلى كل إنسان أن يبتكر طريقه بنفسه .

وتعد الوجودية : ثورة على مفهوم الدين فى المجتمع الغربى امتدادا لثورات(نيتشه وفرويد وماركس) .

وقد أعلن أحد دعاتها البارزين « هرجرد » حربا لا هوادة فيها على الإيمان المسيحى كله لأنه كما يقول لا صلة بينه وبين العقل ، فإذا عدنا إلى شخصية (كيركجورد) إمام الوجودية فى العصر الحديث وجدناه شخصية منحرفة ممزقة ، شأنه فى ذلك شأن شخصية (نيتشه) ،أمه كانت خادمة تزوجها أبوه سراً ، وكان هو أحدب مما ضاعف علته النفسية ، وزاد شعوره بالنقص ، فاعتزل المجتمع وعاداه ،وكانت مؤلفاته العشرون هجوما عنيفا على معتقدات مجتمعه الدينى وهدما للدين الغربى ، ودعوة للناس إلى عدم الإيمان بأنفسهم ، ومن هنا كانت الوجودية دعوة صريحة ضد المسيحية الغربية ومحاولة لهدمها وحربا سافرة على الأديان

كلها ، وقد تابع (سارتر) الفلاسفة الغربيين الذين حاولوا منذ ١٨٨٠ إنشاء « أخلاق لادينية » هذه الدعوة الأخلاقية المنفصلة عن العقيدة ، والتى تجعل أساسها عدم وجود « إله » وقد جاءت نظرية (سارتر) كردفعل لشخصيته وأزمات حياته ولتحديات الحرب العالمية الأولى والثانية للمجتمع الأوربى عامة والفرنسى خاصة .

ويجمل آراء الوجودية من نصوص سارتر :

- الله افتراض غير نافع وهو يكلفنا كثيرا فنحن نلغيه .
- هذا العالم وجد بغير داع ويمضى لغير غاية .
- يوجد كل موجود بدون سبب عقلى وبدون داع وتمتد حياته بواقع من الضعف ثم يموت بالمصادفة .
- العالم كله خداع فى خداع ، إننا موجودون بدون سبيل عقلى وبلا داع والعالم يمضى لغير غاية .

وملخص النظرية الوجودية :

- إن أزمة العصر هى غرابة الإنسان عند ذاته فإن التقدم التكنولوجى قد جعل منه ترسا فى ماكينة أو قطعة غيار فى جهاز :

وتدعو الوجودية الإنسان فتقول :

أنت مطلق الحرية فاصنع ماشئت فإن الحياة كلها سخف يورث القلق والضجر .

وقد وجه الغربيون النقد للنظرية الوجودية من حيث إنها .

١ - تجعل الإنسان فى عزلة عن الجماعة .

٢ - أنها تستطيب إبراز القبيح من جوانب الطبيعة الإنسانية .

٣ - أنها تبطل الأوامر الإلهية وتنكر القيم الخالدة .

* * *

وقد وصفت الفلسفة الوجودية بأنها فلسفة الانحلال أو فلسفة العدم ، إشارة إلى أنها فلسفة إلحادية لا تؤمن بماوراء الحياة وإن كانت تؤمن بالحياة وحق الفرد فى أن يعيش ، وهى فى نظر الاجتماعيين مذهب فلسفى منحل يقوم على تفكيك الوعى العام ، وفى نظر الأخلاقيين أنها فلسفة اجتماعية رجعية تقوم على أساس إنكار الوجود الإلهى . فهى تبدأ برفض التبعية للدين ملتزمة أن تتخذ لها موقفا من مشكلة إرادة الإنسان وحريته فهى تقول إنه « إذا كان الله ليس موجودا فكل شىء مباح » وهذه نقطة البدء فى فهم الوجودية كما قال (سارتر) نفسه من هنا يتضح أن الوجودية لا تعنى من الحرية إلا الفوضوية فى أجلى معانيها .

كما تنكر الوجودية كل محصول البشرية من التجارب فى الماضى

ولا تأبه به ، بل تنادى بضرورة تجاهله وأن يبدأ الإنسان من جديد تماما كالإنسان البدائى .

وتحتقر الوجودية العلم وتنكر قيمته وليس فى الوجودية شىء واحد يفتح الطريق أمام أى تصرف أو عمل لتغيير الواقع الاجتماعى ، بل على العكس من ذلك تحاول أن تغلق كل سبل العمل من أجل مجتمع أفضل وسيطرة أكبر على الطبيعة .

ويصور (سارتر) موقفه تماما حين يقول : لقد صنعت ذاتى لأنى لم أكن ابنا لأحد ، والإنسان لا يوجد بل يصنع نفسه .

فمذهب (سارتر) مستمد من تحديات حياته شخصيا ، فإنه ولد وليس له أسرة ومات أبوه فى الشهر الثالث ، ولم تشعره أمه بحنان أمومتها ، وكانت الأسرة التى عاش فيها مكونة من جدين عجوزين كانا يؤذيانه هو وأمه ويشعرانهما بأنهما ضائعان .

وقد أدى هذا الجو النفسى (بسارتر) إلى تكوين نظرية للبشرية وهى نظرية مليئة بعطف مشوه أساسه الاحتقار فأنكر الكنيسة ومن هنا أراد أن يؤكد ذاته بأن له رسالة وهو الطفل المنبوذ فى مجتمع يرعى الأطفال العاديين .

وقد وصف الباحثون الغربيون الوجودية : بأنها الملل والقلق

والعبث والسأم والرفض والتوتر والشعور بالاغتراب والغثيان وأنها مرض الإنسان فى منتصف القرن العشرين وذلك على حد قول (سارتر) : اليوم كغد ، والغد كبعدالغد ، وأنه لا طعم لشيء ، ولا لذة ولا أمل فى شيء .

ويقول (البير كامى) فيلسوف الوجودية : إن التمرد هو الحل الوحيد لكل ما فى الوجود من « لا معقولية » ، ويترتب على التمرد كحل للتجربة العبثية : رفض كل التصورات الميتافيزيقية خاصة فيما يتصل بقضية الحرية - وجود الإنسان ووجود اللحم والدم ، وهو وجود محدود وبسبب المحدود لا ينبغى أن يطلب الإنسان كليات لا سبيل إلى الوصول إليها .

والبير كامى كسارتر ، تقوم فلسفته الوجودية على :

اليأس والتمزق النفسي ، يقول : ما دمنا نتحدث فليس لأى شيء معنى ، إن مغامراتنا البشعة لا جدوى لها .

ويقول : إن هذا اليأس والتمزق النفسى قد ولدهما الخواء الروحى والفراغ ، وقد رافق الفراغ تمزق على النطاق الاجتماعى فأصبحت البشرية شاردة لا تؤمن إلا بالمتاع .

وقد وصف (جاك بيرك) الوجودية بأنها ظاهرة زمنية عابرة لن تلبث الإنسان أن يتخطاها وهى ليست روحا .

وليست فلسفة الوجودية فلسفة جديدة بل هى قديمة قدم الإلحاد والوثنية وأصولها موجودة فى الفلسفة الإغريقية ومنها استمدت علاماتها وأساطيرها فقد أنكر «أبيقور» وجود الآلهة والبعث ودعا إلى اغتراف الحياة دون ضوابط أو حدود للحريات.

وقد ابتعثت القوى الهدامة[1] هذه الدعوى ضمن عشرات من المذاهب والدعوات التى أخذت تزداد سيطرة على الآداب والفنون فى العالم كلـــه وتضيع المفاهيم الاجتماعية والنفسية والأخلاقية كما ابتعثت هذه القوى مذاهب السحر والغنوصية والإباحة والإلحاد من الفلسفات القديمة وأعادت صياغة مذاهبها ومفاهيمها على نحو عصرى فى طابع علمى براق ، مستهدفة إغراء الشباب بها قبل أن يستكمل ثقافته الأصلية أو سن الوعى والرشد الفكرى ، مستغلة عواطفه وغرائزه بشتى وسائل الإغراء عن طريق وسائله المختلفة فى القصة والأغنية ومن خلال السينما والاذاعة والصحافة .

والهدف واضح كما حـــددته الصهيونية العالمية والقوى الاستعمارية فى مخططاتها .

---

(١) ظلت كتابات (كيركجورد) مجهولة نحو مائة عام ولم تترجم وتنل هذا الاهتمام الشديد إلا أوائل هذا القرن .

وأمامنا تجارب واضحة كشفت عنها كتابات بعض المثقفين الذين عجزوا فى مطالع حياتهم من الحصول على مؤلفات غربية وإسلامية تكشف لهم جوهر الإسلام وحقيقة الإيمان بالله فى أسلوب حديث ووفق مناهج العصر، بينما وجدوا فى أيديهم أمثال (هكذا قال ذرادشت) لنيتشه و (لاعترافات فتى العصر) لشاتوبريان وغيرها من الكتب الأجنبية المترجمة إلى العربية والتى تخوض تجربة الإيمان والإلحاد، وقد أشار هؤلاء المثقفين فى مذكراتهم إلى أن هذه الكتب هى التى دفعتهم فى طريق التحلل والإلحاد حيث لم يجدوا مؤلفات تصحيح المفاهيم أو ترد على الشبهات تعصمهم من الزلل .

---

(٥)

هناك سؤال هام : لماذا ونظرية النفس الفرويدية ، ونظرية الأخلاق الوجودية على هـــذا النحو من الاضطراب علميا ومن الشبهـة الخطيرة فى اتصالها بالصهيونية والغزو العالمى لقيم الأمم وعقائدها ، لماذا نحفل بهما ونروج مفاهيمهما فى أوساطنا وفكرنا؟ ، إنما يرجع ذلك فى الحق إلى آثار النفـوذ الاستعمارى التى لم تزل بعيـــدة الأثر فى مناهجنا الفكرية والتربوية والتعليمية ! .

وإلى أمر آخر أشد أهمية وخطراً هو أننا قد نغفل عن أن للفكر العربى الإسلامى نظرية متكاملة فى مجال النفس والأخلاق وهى نظرية أصيلة تستمد من مقومات الإسلام والقرآن ومن الذاتية العربية الإسلامية .

وهى نظرية تختلف اختلافا جوهريا عن نظرية (فرويد) فى شمولها وفى ارتباطها بالقيم الإنسانية الأساسية التى لا سبيل إلى تجاهلها فضلا عن أنها نظرية بناء الإنسانية ودفعها إلى القوة والنماء والتماسها الفطرة والحق .

وتقوم النظرية الإسلامية على دعائم أساسية أهمها : [1]

أولا : أنها تأخذ الكائن البشرى على ماهو عليه ولاتحاول أن تقسره على ما ليس من طبيعته ، كما تصنع النظم المثالية ، مع تهذيب هذه الطبيعة إلى أقصى حد مستطاع دون أن تكبت شيئا من النوازع الفطرية ، أو تمزق الفرد بين الضغط الواقع عليه من هذه النوازع وبين المثل العليا التى ترسمها له .

ثانيا : الإنسان فى نظر الإسلام كائن لا هو بالملاك ولاهو بالشيطان ؛ مشتمل على الخير كما هو مشتمل على الشر ، له نوازع فكرية تربطه بالأرض ونزعة فطرية أيضا ترتفع به إلى السمو ، يهبط ويرتفع فى حدود طاقاته الطبيعية وعناصره المكونة له .

ثالثا : الغاية العليا للإسلام إيجاد التوازن فى نفس الفرد ، مما يؤدى إلى التوازن فى المجتمع وسبيله أن يمسك الإنسان من خيط الصعود ليساعده على موازنة الثقل الذى يجذبه إلى الأرض .

---

(١) انتفعنا فى هذا البحث بمراجعات هامة لكتاب « الإنسان بين الإسلام والمادية » ، وكتابات الدكتور محمد محمدحسين والدكتور محمد البهى .

والإسلام يكره فقدان التوازن ولو كان إلى أعلى ، لأنه يحرص على أهداف الحياة العليا التى لا تتحقق بغير الاستجابة لنوازع الأرض ، كما يهدف إلى تنظيف الوسائل التى يستجيب بها الفرد لنوازعه حتى ترتفع الحياة كلها وتصبح كريمة .

رابعا : لا رهبانية فى الإسلام : الرهبانية ارتفاع بالحياة عن نوازع الجسد وتطهير للروح ؛ ولكنها فى الإسلام اختلال غير متوازن يعطل أهداف الحياة .

خامسا : الإسلام يسعى إلى التوازن الدائم بين أهداف الحياة ، وضرورات المجتمع ونوازع الفرد دون أن يطغى هدف على هدف .

سادسا : الإسلام يعترف بالكائن البشرى كما هو فيحقق رغبات جسده وعقله وروحه ، كما يعترف بالنشاط الحيوى للإنسان وبحق الفرد فى أن يزاول هذا النشاط فى حدوده المعقولة التى لا تؤذى المجتمع ولا تؤذى الفرد .

سابعا : الإسلام لا يعترف بما يسمى (الخطيئة الموروثة) ولا يعرف التزام أحد بذنب أحد آخر ، « ولا تزر وازرة وزر أخرى » بل أمانة ومسئولية فردية ، وهو بإقامة التكليف يعطى

الإنسان القدرة على أن يصل إلى أعلى درجات الإنسانية بالعمل الصالح والإيمان معا .

ثامنا : ليست الحرية فى الإسلام انطلاقا من القيود والضوابط وفرق بين الكبت والضبط .

تاسعا : أعلن الإسلام التوازن بين روح الإنسان وجسده حتى لا يقع فى متناقضات تفسد حياته وفكره وتجعله عاجزاً عن تحقيق إرادة وجوده كخليفة لله على الأرض .

عاشرا : إن الخطيئة فى الإسلام ليست غولا يطارد الناس وليست خطيئة آدم سيفا مصلتا على كل البشر ولا تحتاج إلى فداء ولا تطهير : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » .

حادى عشر : إن الأخلاق لا تنفصل فى الإسلام عن العقيدة فإذا انفصلت الأخلاق عن معينها الأصيل (العقيدة) لم تستطع الصمود أو البقاء .

ثانى عشر : ربط الإسلام الاعتقاد بالجزاء فى الآخرة بالاعتقاد بالله ، وجعل الإيمان بالبعث والجزاء جزءاً لا ينفصل عن التوحيد .

ثالث عشر : عنى الإسلام بتكوين الخلقية فى الإنسان وتكوين الضمير الدينى حتى يكون ذلك ضابطا يحول دون أن يتجه

علم الإنسان وسيادته فى الكون إلى الإفناء والتخريب بما يعصم العلم والسيادة والقوة عن أن تستخدم فى غير صالح البشرية عامة .

رابع عشر : التوازن : من أبرز مقومات الإسلام التوازن بين مختلف القوى الإنسانية : بين الروح والجسد وبين الأشواق العليا ونزعات الغريزة ، وبين الخضوع لضرورات الحياة والتسامى إلى طلاقة الأفق الأعلى . يقع الإسلام فى نقطة الوسط بين أفكار البشرية المتطرفة وبين الكبت الذى تفرضه بعض النظم والعقائد، والانطلاق الحيوانى ، وبين الفردية المتطرفة وبين الجماعية التى تقضى على كيان الفرد ؛ بين المادية المغرقة التى تحدد الحياة بما يقع فى محيط الحواس ، والروحانية المغرقة التى تهمل عالم المادة وتتعلق بالروحانيات والخيال .

---

(٦)

للفلسفة المادية نظرتها إلى الإنسان وللإسلام نظرته فأى النظرتين أقرب إلى الأصالة والفطرة ، وأكثر إخلاصا للإنسان نفسه وعملا لتحريره ؟ .

الإنسان فى الإسلام مخلوق لغاية فلم يخلق عبثا ولا سدى .

والفرق بين الإنسان والحيوان إنما يكمن فى العقل والقدرة على التفكير ، وذلك التكليف الذى أطلق عليه القرآن اسم «الأمانة» فالإنسان خلق خلقا متميزا فى طبيعة تركيبه وفى وظيفته وغاية وجوده ومآله ومصيره ، وأنه قد وضع موضع الامتحان بالحياة والابتلاء بها والمحاسبة فى النهاية على سلوكه فيها ، هذا السلوك الذى يقرر جزاءه ومصيره .

وقد هدى الإنسان طريق الخير والشر ، وكشفت له رسالات السماء مفهوميهما ، ونتائج السير فى كل منهما « وهديناه النجدين » وقد كان الدين عامة والإسلام بوصفه خاتم الرسالات السماوية دعوة إلى تحرير الإنسان من الشر ووضعه على طريق الله الحق .

وقد اعترف الإسلام للإنسان بكل دوافعه وغرائزه ومنها

الطاقة الجنسية ورغبات الطعام والملبس والزينة ولكنه حفظا لشخصية الإنسان من الانهيار والتدمير ، وضع « ضوابط » منظمة وكفل ذلك داخل نطاق الأسرة والزواج ، وعنى بتربية الإرادة لتكون عاملا فى كبح جماح النفس دون عنان الشهوات .

وقد أكد الإسلام ترابط الروح والجسد فى الإنسان ودعا إلى التوازن بينهما حتى لا يقع التناقض أو ما يسمونه فى لغة الفلسفة الحديثة : الرفض ، والمسلم لا يكون رافضا أبداً لأن توازنه بين الماديات والروحيات ، وبين العقل والقلب ، وبين الدنيا والآخرة يجعله منطلقا إلى غايته فى طريق وسط مأمون .

ولن يحدث الاضطراب الذى يزعزع النفس الإنسانية ويدفعها إلى الإحساس بالغثيان أو الضياع إلا إذا فقد الإنسان عنصرا من العنصرين المتكاملين فى داخله وأعماقه .

وفى الإنسان وفق مفهوم الإسلام عنصران :

عنصر ثابت لا يتغير مهما تغيرت الظروف ومهما تغيرت حياته على الأرض لأنه يتصل بحقائق أزلية ثابتة لا يدركها التغيير . وفيه إلى جانب ذلك عنصر متغير أو صورة متغيرة من الجوهر الثابت ، أو حالات متطورة للكيان الدائم ولكنها مع تغيرها وتطورها لا تخرج بالإنسان عن كونه الإنسان ولا تنفصل

لحظة واحدة عن كيانه الدائم بحكم وحدة النفس الإنسانية وترابطها وشمولها لكل ما يشتمل عليه الإنسان .

* * *

وفى مفهوم الإسلام أن الإنسان قبضة من طين ونفخة من روح الله ، وفى قبضة الطين تتمثل جميع عناصر الأرض المادية ، وتتمثل فيها دوافع الأرض، أما نفخة روح الله فتتمثل فيها الإرادة القادرة على التعرف على الخير والشر ، وفيها جماع الرفعة والسمو والتسامى والتطلع إلى الكمال « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

هذه هى العناصر الثابتة التى لا تتغير مهما تغيرت مظاهر الحياة وإلى جانب ذلك صور متغيرة أو حالات متباينة ، وهى فى تغيرها وتطورها لا تخرج بالإنسان عن كونه إنسانا .

ومن هنا فإن تركيب الإنسان الروحى المادى بطبيعته يتطلع إلى خالقه، ولا يستطيع أن يحيا دون عقيدة ودون دين .

وحين يفقد الإنسان العقيدة : فإنه يتبقى ذلك الجانب المادى وحده ، الذى يحوله إلى قسوة الوحش أو تفاهة الانحلال .

فالعقيدة هى التى تضبط هذا التركيب المادى وتنظم حركاته،

تحول دون تبديد طاقته الحيوية فى متاع الجسد .

وهنا يقع التناقض ، والرفض ، والتمزق النفسى .

والعقيدة هى القوة الراكزة التى تحول دون التصادم أو الاضطراب أو الانحراف عن الاتجاه الصحيح ، هذه العقيدة نيرة ذات بصيرة ، لا تحول دون الاستمتاع بالطيبات من الرزق ولا تحرم زينة الله التى أخرج لعباده ولا تمنع تقدم المجتمع أو تطور العلم ولكنها تكون بمثابة السياج المانع ، والإطار الحصين .

* * *

هذا هو مفهوم الإسلام للإنسان وهو أقرب إلى الفطرة من مفهوم الفلسفات المادية ، وأوسع منها أفقا ، وأكثر إيمانا بالنفس الإنسانية وحماية لها .

لقد اعتمدت الفلسفات المادية على مقررات العلم وحدها، وهى مقررات لم تستطع بعد أن تصل إلى أعماق حقيقة الكائن البشرى ولذلك فقد أخطأت الحساب .

وشهد شاهد من أهلها على هذا القصور ، ذلك هو الدكتور (الكسيس كاريل) ، وهو عالم طبيعى وليس فيلسوفا .

يقول دكتور (كاريل) : إن أغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محدودة من دنيانا الباطنة مازالت غير معروفة، فنحن لا نعرف الإجابة على أسئلة كثيرة مثل :

● كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لكى تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية ؟

● كيف تقرر (الجنيس) = تناقلات الوراثة، الموجودة فى نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟

● كيف تنتظم الخلايا فى جماعات من تلقاء نفسها، مثل الأنسجة والأعضاء فهى كالنمل والنحل تعرف مقدما الدور الذى قدر لها أن تلعبه فى حياة المجموع ؟

● ما هى طبيعة تكويننا النفسانى والفسيلوجى ؟ إننا نعرف أننا مركب من الأنسجة والأعضاء والسوائل والشعور، ولكن العلاقات بين الشعور والمخ ما زالت لغزا !

« إننا مازلنا بحاجة إلى معلومات كاملة تقريبا عن فسيولوجية الخلايا العصبية، إلى أى مدى تؤثر الإرادة فى الجسم.

كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء ؟

على أى وجه تستطيع الخصائص العضوية والعقلية التى يرثها كل فرد أن تتغير بواسطة الحياة والمواد الكيماوية الموجودة فى الطعام والمناخ والنظم النفسية والأدبية .

هذه هى التعقيدات التى يواجهها العلم فى تركيب الإنسان فكيف يستطيع أن يضع له فلسفة وهو لم يفهمه على حقيقته بعد !

* * *

غير أن (كاريل) يدهش لمعجزة الخلق التى تحير الذهن البشرى، يقول : إن الفردية جوهرية فى الإنسان ، إنها ليست مجرد جانب معين من الجسم ، إذ أنها تنفذ إلى كل كياننا وهى تجعل الذات حدثا فريدا فى تاريخ العالم ، إنها تطبع الجسم والشعور ، كما تطبع كل مركب فى الكل بطابعها الخاص وإن ظلت غير منظورة .

تميز الأفراد كل منهم عن الآخر بسهولة بواسطة تقاطيع وجوههم وإشاراتهم وطريقتهم فى المشى ، وصفاتهم العقلية والأدبية الخاصة، ومع أن الزمن يحدث تغييرات كثيرة فى مظاهر الأفراد إلا أنه يمكن دائما معرفة كل فرد بواسطة إبقاء أجزاء معينة من هيكله وكذلك فإن خطوط أطراف الأصابع مميزات قاطعة للفرد ، ومن ثم فإن من بصمات الأصابع هى التوقيع الحقيقى للإنسان .

ومن المحتمل أنه لم يوجد فردان بين ملايين البشر الذين استوطنوا هذه الأرض، كان تركيبهما الكيماوى متماثلا، وترتبط شخصيتهما بالأنسجة التى تدخل فى تركيب الخلايا والأخلاط بطريقة ما زالت غير معروفة حتى الآن، ومن ثم فإن فرديتنا تتأصل جذورها فى أعماق ذاتنا.

وتطبع الفردية جميع أجزاء الجسم المركبة، فهى موجودة فى العمليات الفسيولوجية كما هى موجودة فى التركيب الكيماوى للأخلاط والخلايا، ولهذا فإن كل شخص يتفاعل بطريقته الخاصة مع أحداث العالم الخارجى، مع الضوضاء والخطر والطعام والبرد.

ويقول (كاريل) فى النهاية: إننا عاجزون عن اكتشاف الصفات الجوهرية لشخص بعينه، فضلا عن أننا أكثر عجزا عن اكتشاف امكانياته.

ومجمل ذلك أن هناك ثلاث حقائق أساسية:

أن الإنسان كائن فريد فى هذا الكون، وأنه كائن معقد أشد التعقيد، وأن الإنسان يشتمل على عوالم متفردة عددها عدد أفراده.

ولنا أن نتساءل: هل هذا الإنسان المعقد الذى لم يكتشفه

العلم بعد ويفهمه فهما صحيحا ، هل يستطيع أن يرسم لنفسه منهج حياته على النحو الذى يحقق له السلامة والخير ؟

الحق أن المنهج الصحيح هو المنهج الذى رسمه خالق الإنسان العليم بتكوينه وطاقاته ووظائفه ، والأسلوب الصحيح لمعالجة هذه النفس بما يحفظ له التوازن بين فرديته وجماعيته، وبين روحه وجسمه ، وبين دنياه وآخرته .

وإذا كان الإسلام قد رسم منهج حياة الإنسان على أساس التوازن والتوسط بعيدا عن الإسراف فى اتجاه الروح أو اتجاه المادة فإن الدكتور (الكسيس كاريل) فى كتابه : « الإنسان ذلك المجهول » لم يجد إلا أن يردد هذا الذى رسمه منهج الدين يقول :

« علينا أن نقى أنفسنا شر الإسراف فى أى شىء وكل شىء ، فإن الإسراف فى أى شىء يفضى إلى الانحلال ، وإن الإنسان يميل بطبعه إلى الإسراف فى شهواته كالخمر والأكل والسرعة وغيرها ، وعليه أن يروض نفسه على الاتزان وعدم الإسراف فى أى شىء حتى فى النوم ، إن رجل العصر إما مفرط فى النوم أو مسرف فى اليقظة ، وهذا ضار به وخير له أن يعود نفسه أن يظل يقظا حتى تدركه الرغبة فى النوم فينام » .

لقد حاولت الفلسفة المدنية أن تعتمد مناهج الحيوان لتطبقها

على الإنسان ومع أن (الدارونية) الحديثة التى تؤمن بتطور (دارون) ، فإنها لا تؤمن بحيوانية الإنسان ولا ماديته الكاملة. وإنما تؤمن بتفرد الإنسان بيلوجيا وسيكولوجيا على النحو الذى أورده (جوليان هكس) فى كتابه: «الإنسان فى العالم الحديث».

ومع ذلك فإن النظرة إلى الإنسان كحيوان ما لبثت أن سيطرت وهى مناقضة للعقل وللنظرة العلمية، وظلت تنمو فى جو مريب حتى ظهرت منها النظرية (الفرويدية) التى أقامت قواعدها على أساس « حيوانية الإنسان » وسيطرة غرائزه الحسية وحدها على كل تصرفاته، ومنها جاءت الوجودية متممة للحلقة التى أرادت الفلسفة المادية بها أن تخرج الإنسان من إنسانيته ، ومن عقائده ومن فطرته لتسلمه إلى الانهيار والتدمير .

وقانون الفطرة ، التى ركب بها الإنسان روحا ومادة لا يقر أن الحياة النفسية للإنسان تنبع من جانب واحد هو جانب الحيوان . ولا يصدق على أى منطق أو مفهوم علمى أن غرائز الإنسان هى التى تحكمه وتسيطر على كل نشاطه، وأن جانب الروح لا وجود له على الإطلاق .

(٧)

والنفس الإنسانية لها نظرية فى مفهوم الفلسفة المادية ولها نظرية فى مفهوم الإسلام وقد قطع الفكر الإسلامى شوطا طويلا فى مجال دراسة النفس مستمدا مفاهيمه الأساسية من القرآن الكريم.

ويرمى مفهوم الفكر الإسلامى من معرفة النفس أن يكون سبيلا لإصلاحها أو إلى تهذيب الأخلاق الذى لا يتأتى إلا بمعرفة النفس وعيوبها حتى يتمكن من إصلاحها فليست معرفة النفس فى الفكر الإسلامى هدفا مجردا فى ذاته ولكنها وسيلة إلى مراقبة السلوك .

ويعد الإمام الغزالى ، هو مؤسس علم النفس الإسلامى ، وهو يفسر سلوك الإنسان بأربعة دوافع أساسية هى شهوة الطعام والجنس والمال والجاه . وأساس هذه الدوافع كلها عنده هى غريزة الطعام ، وعنده أن الاعتدال هو الميزان الصحيح لجميع أنواع السلوك والخروج عن حد الاعتدال إلى التفريط والإفراط ، هو سبب الأمراض النفسية ، والعلاج هو التماس حد الاعتدال الواجب . فطابع الفكر الإسلامى . فى السلوك هو الاعتدال، ذلك الميزان الصحيح لجميع أنواع السلوك والغاية من كل سلوك

هو معرفة الله ومراعاة ما أمر به فى كتابه ليهتدى الناس إلى الصراط المستقيم واتباع سبيل التقوى .

والغريزة الجنسية (عند الغزالى) ركبت لفائدتين : اللذة وبقاء النسل ، واللذة ليست مطلوبة لذاتها أو لبقاء النسل بل لشىء آخر أسمى وأرفع ، وللشهوة عنده درجات ثلاث : إفراط وتفريط واعتدال . فالإفراط ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجل إلى الاستمتاع بالنساء والجوارى فيحرم من سلوك الرجولة أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش .

والتفريط فى هذه الرغبة هو الضعف وهو مذموم والمحمود أن تكون معتدلة ومطابقة للعقل والشرع .

ورسم الغزالى لعلاج آفة هذه الشهوة أمورا ثلاثة :
الجوع ، غض البصر والاشتغال بشىء يستولى على القلب .

* * *

ولا ترى النظرية الإسلامية رأى النظرية المادية من أن الجسم هو الأصل ولا ترى أيضا أن الروح هى الأصل كما ترى بعض الفلسفات الروحية المسرفة ، ولكننا ترى أن هناك علاقة متبادلة بين النفس والجسم ، ليست النفس هى التى تسيطر على الجسم وليس الجسم ، بل هناك تفاعل بينهما وتوازن ، ذلك أن الإسلام يأخذ الإنسان ككل : عقله وجسمه ونفسه وروحه فهو يوازن

بين مطالب جسده ومطالب روحه فهما جزءان من كيان متكامل، وبذلك يشجب الإسلام نظرة بعض المذاهب التى ترتكز على عقيدة الروح أو التى تتجه إلى مادية الجسد مع إهمال مطالب الروح. فوحدة الجسم والنفس فى الإسلام أساس « حتى إنه يجعل العبادة عملا » والعمل عبادة، ولا يفصل بين الماديات والروحيات، ولا بين الأرض والسماء » والإنسان فى نظر الإسلام متميز عن الحيوان، ومن أجل ذلك ينبغى له « أن يحقق كيانه الإنسانى المتميز ولا ينحرف إلى حياة الحيوان ومن الضرورى لذلك الا يخضع خضوعا مطلقا لدافع الغريزة.

* * *

وإذا كانت النظرية النفسية الفرويدية المادية ترى كراهية القيود التى تفرضها العقيدة على السلوك وتعدها كوابت للنشاط الحيوى فإن العقيدة الإسلامية لا تكبت النشاط البشرى وإنما تساير الفطرة ومن مسايرة الفطرة جاءت تكاليف العقيدة الإسلامية.

(٨)

للإسلام فى مجال الطاقة الجنسية وقضية الكبت موقف ورأى يختلف اختلافا واضحا عن النظرية المادية .

فالإسلام أساسا يعترف بالغريزة الجنسية فهى طاقة بشرية تحتاج إلى إشباع وهى تؤدى مهمة حيوية بإشباعها ، وهى مصدر نتاج البشرية الذى لا يتوقف .

ولكن الإسلام يضع لهذه الطاقة الضوابط ويجريها فى دائرة النهج الطبيعى .

وتقوم النظرة الإسلامية على أساس استنكار الاستغراق والإسراف لأنه يضخم أحد جوانب الإنسان على حساب بقية الجوانب ويستنفد طاقة يمكن أن تنطلق فى اتجاهات عدة . ويكشف القرآن عن الشعوب التى انهارت واستغرقتها متع الجنس الفاجرة والترف .

ولقد أسرفت الفلسفة المادية فى الحديث عن إطلاق الغرائز وإباحتها ونددت بالكبت واعتبرته مصدرا من مصادر الأمراض النفسية .

ولقد كان (فرويد) فى نظرته تلك واقعا تحت تأثير بعض المفاهيم الدينية المنحرفة التى كانت تعيشها أوربا والتى كانت تدعو إلى كراهية الطاقة الجنسية والعلاقة بين الرجل والمرأة. وتحرص على الرهبنة واعتزال الحياة.

أما بالنسبة للمسلمين فإن الأمر يختلف اختلافا كبيرا فقد اعترف الإسلام بالدوافع الفطرية ونظر إليها نظرة التقبل والإقرار على أنها واقع طبيعى لا اعتراض عليه فى ذاته، ولكنه وضع له الضوابط حتى لا ينساق الناس مع هذه الرغبات فلا يلبثوا أن يستعبدوا لها ويضعفوا عن مواجهة الحياة ونضالها.

وقد كان اعتراف الإسلام بها عاملا من عوامل انطلاقها دون تكبت فى اللاشعور.

فالإسلام لا يحرم الرغبة ولكنه ينظمها، والإسلام لا يقر الاسراف فيها كما لا يقر رفضها، وهو يعمل على إقامة التوازن بما تنتفى معه كافة الاضطرابات النفسية والعصبية التى تنشأ من المنع ومن الإسراف على السواء. والطريق الطبيعى للطاقة الجنسية هو «الزواج» وليس أى أمر آخر.

وهناك فارق واضح بين الكبت والضبط: فالكبت هو إنكار هذه الطبيعة البشرية أساسا والنظر إليها نظرة كراهية بينما الضبط

يجيء على أساس الاعتراف بها فهو يؤجلها أو يعليها ولكنه لا يقتلها ولا ينكرها أو ينظر إليها على أنها من المحرمات .

وبذلك تختلف النظرة الإسلامية للجنس عن نظرة الفلسفة المادية التي جاءت أساسا من منابعها ومصادرها في المجتمع الغربي وكرد فعل لبعض المفاهيم الدينية المبتدعة والتي تختلف مع جوهر الدين ومع جوهر الفطرة الإنسانية .

وقد رسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مقطع الرأي في ذلك حين قال : (يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج) ، والمسلمون(١) « أمروا بالعفة إذا عجزوا عن الزواج » ، « أما هناك فالأصل هو العفة فإذا عجزوا تزوجوا » ولذلك كانت الفلسفات السابقة على الإسلام تحاول حصر هذا الزواج في أضيق نطاق وتحرمه على القادة الروحيين أو تقلل فرصته بمنع زواج الأرملة والمطلقة .

ولذلك جاء الإسلام فأزال « الفكر المعادي للزواج الذي ساد العالم المتدين قبل بعثته ، والذي كاد يهدد بفناء الجنس البشري أو قيام تناقض في ضمير المتدين بين قوانين الحياة التي يمارسها فعلا ، وبين تعاليم الدين التي يجب عليه احترامها » .

والاتصال الجنسي في الإسلام له ثواب .

---

(١) من كتاب (.. في فكر منحل)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن فى بضع أحدكم لأجرا ». قالو : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟!

قال الرسول : (أرأيتم لو وضعها فى حرام ، كان عليه فيها وزر فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر » .

* * *

«وتحريم الزنا فى الإسلام لا ينبعث من كراهية الجنس بل من احترام الجنس وتنزيهه عن العبث ومن احترام المرأة وتنزيهها عن أن تكون أداة لمتعة الرجل ، وحتى لا ينسب الطفل لغير لحظة الحب التى أنجبته ، وإذا علمت أن الزنا لا يجوز إثباته بالتجسس أو الشبهة وأن عقوبة الرجم لم تطبق فى التاريخ الإسلامى إلا على معترف أو معترفة ، وأن هذا الزانى المعترف لو أنكر بعد أن صابته الأحجار بل لو فر هاربا من الأحجار وقف تنفيذ الحد » .

وقد أشارت إلى أهمية هذا المغنى الدكتورة (سجريد هونكه) فى كتابها : (شمس الله تشرق على الغرب) حين قالت : « إن تعبيرات احترام المرأة دخلت اللغات الأوربية على يد العرب » هذا فضلا عن أن الخطيئة فى الإسلام من الأمور التى تقطعها التوبة .

ولا شك أن هذا الضبط الإسلامى هـــو مصدر السكينة والتوازن الذى تتسم به الشخصية الإسلامية، بينما كانت هذه الدعوة إلى الانطلاق الجنسى، والتحرر الاجتماعى هى التى فتحت باب القلق الدائم الذى لا ينتهى والاضطراب النفسى والعصبى الذى يؤدى إلى أمراض ضغط الدم والهستيريا والجنون والجريمة .

وليس مصدر ذلك (الكبت) كما قال (فرويد) بل هو (الإطلاق) وفى الإسلام لا مانع من التوازن والاعتدال بين المتاع المشروع وبين الاندفاع فى الأرض للعمل والتعمير والبناء ، بل إن النفس السوية تكون فى مجال العمل أكثر قوة من النفس المنحرفة المنهارة .

والإسلام يحدد مصارف الجنس ويحددها بالزواج ، وهو حين يدعو إلى التبكير فى الزواج إنما يخفف الضغط على الأعصاب إلى أقل مدى ممكن ويرى النفس من كثير من عوامل الاضطراب .

هذا وبالرغم من هذه الصيحات التى يصدرها (فرويد) مهدداً بالكبت فإن العلماء لا يرون ما يراه بل يرون أن الأمر أهون من ذلك كثيرا وهذا الدكتور (لويس بيش) الطبيب النفسى يقول: إن الدوافع الغريزية الجنسية دوافع غريزة تحاول أن تعبر عن نفسها ولكن هذا لا يعنى أبدا أن عدم الإشباع يؤدى إلى الدمار

إن التعبير عن الجنس ليس ضرورة مطلقة ، وليس هناك ثمة ضرر جسمى أو عقلى ينتج عن الامتناع عن الجنس .

إن الإثارة الجنسية إنما تجىء من العالم الخارجى ، وإن ما تتخيله عقولنا عن الجنس يكون أشد إثارة من الجنس فى واقعه الموضوعى . ومن ثم نستطيع أن نقول إن الكتب الجنسية وأفلام السينما وما إلى ذلك هى المسئول الأول عن إثارة الحيوانية الكامنة فى أعماقنا وليس الجنس فى ذاته .

« وعلاج الجنس هو الزواج أو الكظم الذى لن يضر شيئا » .

---

(٩)

للحرية فى الإسلام نظرية تختلف عن مفهوم الحرية فى الفلسفة المادية .

فقد ولد الناس جميعاً أحراراً وحريتهم فى الحياة مطلقة فى كل شيء ، وتبقى مطلقة حتى تصطدم بالحق أو الخير فإذا اصطدمت بالحق أو الخير سواء كان خير الفرد أو خير المجتمع فإن الحرية الفردية تقف و تتقيد عند حدود الحق والخير .

وقد دعا الإسلام إلى التحرر من ربقة التقليد ودعا الناس إلى التفكير بالدليل والبرهان .

ولا يتصور الإسلام الحرية انطلاقا من الضوابط والنظم الإنسانية والنفسية والاجتماعية لأن الحر لا يمكن أن يكون منطلقا .

ذلك أن الحرية لا تكون مطلقة أبدا لأنه لاشيء فى الوجود الإنسانى يعد مطلقا من كل قيــــد ولأن الحرية معنى اجتماعى لا يتصور وجوده إلا فى مجتمع يأخذ الأفراد منه ويعطون، مادامت الحرية معنى اجتماعيا فلا بد أن تكون لها ضوابط اجتماعية .

وحقيقة مفهوم الحرية : إنما هو تحرير الإنسان من العبودية ، وأخطر المظاهر التى تستعبد الإنسان إنما هى الشهوات والأهواء ، شهوات المال والذات والخلق والطعام .

والحرية هى أساس المسئولية والجزاء ، ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلى تحرير الإنسان فلا يكون عبدا لهوى من الأهواء .

وتقوم الحرية بالنسبة إلى المعانى والأفكار على أساس التخلص من عبودية المذاهب والأفكار التى لا تتفق مع التوحيد واختيار الأصلح مما يفيد فى ضوء القيم الأساسية لأمتنا وفكرنا .

وشرط الحرية ألا تنتهى إلى الفوضى التى تضر بمصلحة الفرد والجماعة ، والحرية هى الانطلاق فى حدود طاقة الإنسان .

الانطلاق فى الرأى والاعتقاد فى القول وفى الفعل .

ومن هنا يبدو الفارق بين مفهوم الفلسفة المادية ومفهوم الإسلام فيبدو أن المادية هى التى تدعو إلى الحرية بمعنى الانطلاق وكسر كل الحواجز والقيود . بينما يبدو مفهوم الإسلام وهو يدعو إلى إقامة الضوابط التى تحول دون الانطلاق المطلق .

ولا شك أن الحرية بمفهوم الفلسفات المادية ليست من مظاهر التقدم التى تستهدف رقى الإنسان ورعاية المجتمعات وحمايتها من الأخطار ، نفهم أن المادية تدعو إلى الانطلاق لأنها تنكر القيم والمثل والمبادىء ، وتؤمن بالفردية والأنانية

التى هى أخطر مظاهر الطفولة الإنسانية ، ونفهم أن الإسلام يدعو إلى الحد وعدم الانطلاق لأنها تدفع الإنسان نحو المستوى الإنسانى الرفيع وهو مستوى الرشد وفى هذا المستوى يقر الرشيد بوجود غيره ويؤمن بالقيم والمبادىء التى تجعل منه ومن غيره وحدة فى الترابط والانسجام .

والإقرار بالغير مع الإيمان بوجوب الإنسجام معه يجعل حرية الفرد فى حدود مصلحة الغير ، فللفرد أن يرى ويعتقد ويقول ويفعل ويتصل بالغير ولكن لا على الإطلاق ، بل بما يصون حرمة الغير ويحفظ وجوده .

ومن هنا خطأ القول بأن الحرية بمعنى الانطلاق هى مظهر للتقدم والتطور ذلك أن تطور الإنسان وتقدمه الصحيح والتاريخى لا يقر هذا الانطلاق أما التقدم بمعنى العودة إلى حيوانية الإنسان وحدها فهو عودة إلى عهد الطفولة الإنسانية .

الحد من الانطلاق هو التنظيم ، وليس الكبت من لوازم المجتمع وطبيعة كل مجتمع هى تنظيم علاقات أفراده بعضهم ببعض[1] » .

ومن الواضح فى ضوء هذا أن مفهوم الكبت فى الإسلام يختلف عن مفهومه فى الفلسفة المادية .

---

(١) الدكتور (محمد البهى) : الإسلام والفلسفات الحديثة .

والإسلام حين يعترف بالغرائز والطاقات والرغبات الحسية، ويعطيها حرية العمل مع تنظيم هذه الحرية وضبطها حماية للكيان الإنسانى نفسه وحماية للمجتمع، فهو لا يعرف الكبت بالصورة التى عرفتها المجتمعات والمفاهيم الدينية التى وضعت هذه النظرية تحت ظلالها الكثيفة وفى مواجهة تحدياتها، والأسلوب الذى تدعو إليه النظرية المادية فى مواجهة ذلك هو إطلاق النفوس إطلاقا كاملا ومنح الغرائز حرية مطلقة وذلك مالا تقره الفطرة الإنسانية، فالغريزة الجنسية حقيقة لا يمكن تجاهلها والحل الإيجابى لها هو الزواج، فإذا لم يتيسر فهناك التسامى بالغريزة يمنع صنوف المثيرات التى تعترض الشباب وتستفز الشهوات، وقد أقرت المذاهب النفسية المعتدلة: أنه يمكن تغيير مجرى الغريزة فى نزوعها الأخير إما بالتسامى أو بالتعديل أو بالكبت (التسامى هو ربط الغرائز بمثل عليا تتأثر بها وحدها) و (التعديل هو إشباع الغريزة بمظهر فيه العوض عن حاجتها الأصلية).
أما الكبت فى ضوء الاعتراف بالغريزة وطبيعتها، فهو عنصر ضرورى فى كل تربية سليمة وليس هناك نظرية أصيلة فى التربية والأخلاق والنفس تقول بأن النفس تجاب إلى كل ما تشتهى.
وتصوير الكبت على أنه خطر على هذا النحو الذى صورته الفلسفة

المادية هو كذب ومبالغة وقد رده كثير من العلماء فى نفس الحقل، وهو دسيسة يغرى بها الشباب على الانفلات مع الأهواء الجامحة وبذلك تتحطم هذه الأجيال وتنشأ واهنة العزم فلا يستطيع حمل أمانة مقاومة الغزو الذى يشنه العدو على الأمة العربية والعالم الإسلامى كله .

إن محاولة الغزو الغربى الاستعمارى فرض مثل هذه النظريات المادية وإطلاق اسم العلم عليها إنما هو هدف خطير يحاول أن يمهد فى نفوس الشباب تقبل مظاهر الانحلال التى ترسمها المجتمعات من خلال الأزياء والأفلام السينمائية لتهديم القيم وقتل الغرائز .

القضية السادسة

الإسلام والأخلاق

(١)

ما تزال حملات الغزو الثقافى توجه حملاتها إلى مفهوم الأخلاق فى الإسلام دافعة إلى الثقافة العربية بموج زاخر من النظريات والمذاهب الفلسفية التى تتنكر لمفهوم الأخلاق وتهاجمه فى عنف ، بينما تحاول أن تفرض مفهوما لا يتسق مع الطبيعة الإنسانية ولا مع الفطرة ولا يلتقى بالنفس العربية المسلمة فى مقوماتها الذاتية وتركيبها المعنوى ومزاجها الاجتماعى .

فالأخلاق فى مفهوم الإسلام قاسم مشترك على المجتمع والقانون والسياسة والاقتصاد والأدب والتربية لا سبيل إلى عزله عن هذه المقومات ، فقد جعل الإسلام هذه القيم جميعا أخلاقية المصدر والدافع والهدف .

وهو مفهوم يوفق أساسا بين الاعتقاد بالله وبخلود النفس والجزاء فى الدار الآخرة ، والإيمان بالمسئولية الفردية والجزاء

الأخروى ركيزة أساسية فى الأخلاق الإسلامية ومحاولة فرض نظرية تجعل الحياة الدنيا هى آخر المطاف إنما هى دعوة مدمرة تفتح كل أبواب الإباحة والشر والخروج عن جميع الضوابط والكوابح ، وبدافع الإحساس بأنه ليس هناك للعمل محاسبة وجزاء ، فإذا كانت الدنيا هى النهاية إذن فلماذا لا يعب الإنسان منها عبا دون تقدير لأى مسئولية أو حساب ، ومن هنا فإن التأكيد الذى وضعه الإسلام على حقيقة البعث والجزاء بعد الموت ، هو تأكيد جازم وهو أمر طبيعى يتسق مع مفهوم الدين ووجود الإنسان على الأرض ، وإلا فأى حكمة فى وجود الإنسان على الأرض إذا لم يكن له مسئولية فى سلوكه وتصرفه وعليه حسابا يؤديه إزاء ذلك كله وجزاء سرمدا فى حياة أخرى بعد هذه الحياة .

كانت الأخلاق قبل الإسلام تقوم على كبح الغرائز وكان الزهد قد ظهر فى بعض الدعوات والعقائد وانتهى إلى الرهبنة واعتزال الحياة ، وكان يأمر بقمع الغرائز والشهوات فلما جاء الإسلام أعاد المفهوم الصحيح للدين السماوى فى الأخلاق وهو « ضبط » الغرائز وتركيزها وترويضها وتصعيدها والسمو بها .

وفكرة تصعيد الغرائز الحديثة مستفادة أولا من القرآن الكريم « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

وفى الإسلام يتميز الفرق بين التقوى والرهبنة : فالتقوى مشاركة فى العمل مع يقظة ضمير تحول دون الرذيلة : « اجتناب الحرام » أما الرهبنة فهى اعتزال كامل للمجتمع ، والإسلام لا يؤمن بالانفصال عن المجتمع ولا بالعزلة عنه وينهى عن التقشف والرهبنة نهيا تاما .

والانطلاق وراء الشهوات ليس هو مفهوم الحرية وإنما ذلك هو العبودية الذليلة للغرائز ولكن الحرية هى القدرة على امتلاك الإرادة ودون اعتداء ما على حرية الآخرين . وضوابط التصرفات التى يقرها الإسلام تضمن كرامة الجماعة وتنظم حرية الأفراد وتعلى حرية المجتمع على حرية الفرد ، وهى تصطنع الحكمة فى منع المريض الذى يضره الطعام وتتمثل فى أن الإنسان لا يعيش وحده وإنما يعيش كجزء من المجتمع .

والأخلاق فى الإسلام ليست « مثالية » بل واقعية عملية ، تستمد قيمها من صميم واقع الإنسان بحسبانه أحد أفراد المجتمع . وهى تظهر فى مستويين : فردى واجتماعى .

وفى مجموعها تؤكد حرية الإنسان وإرادته فى الاختيار وتحمل المسئولية فالفرد مسئول عن عمله ، واع لشخصيته ، محقق النفع العام للمجتمع بأسره .

والأخلاق فى الإسلام ترتبط بالمجتمع ارتباطا وثيقا ، وتمثل القاسم المشترك لكل روافده من سياسة واقتصاد وأدب وعلم وتربية .

وقد جمع الإسلام بين السلوك والخلق فى مختلف المجالات وبين الدنيا والآخرة ، ومقياسها هو التقوى والعمل معا . التقوى بمعنى الاتقاء والترك للانحراف فى الاعتقاد والسلوك ، والعمل بمعنى الحركة والإضافة .

(٢)

يختلف مفهوم الأخلاق فى الإسلام عن مفهومه فى الفلسفة المادية التى تستمد جذورها من الوثنية اليونانية اختلافا جذريا ويتمثل هذا الاختلاف فى عدة جوانب :

أولا : إيجابية الأخلاق فى المفهوم الإسلامى .

ثانيا : شموله بالنسبة للناس جميعا .

ثالثا : وسطيته بعيدا عن الانحراف والجمود .

رابعاً : قدرته على التبلور وفق حاجات المجتمعات والعصور .

خامساً : الأخلاق الإسلامية أخلاق اجتماعية لا فردية .

فالقرآن ينظر إلى الفرد فى ضوء مصلحة المجتمع فإذا تضاربت مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع يؤثر الفرد مصلحة المجتمع ويضحى بنفسه فى سبيله .

وفى الفلسفة اليونانية يتمثل هدف الأخلاق فى السعادة « أخلاق سعادة » أما فى الأخلاق الإسلامية فيتمثل فى التقوى « أخلاق تقوى » تقوم على الإيثار وتجنب الحرام والإقبال على الحلال .

والإسلام لم ينه عن الدنيا ولم يطالب الناس بالابتعاد عنها أو الزهد فيها ولم يحرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق بل جعلها خالصة . وتتمثل الأخلاق الإسلامية أبرز ما تتمثل فى : « التطبيق النبوى » الواضح فى شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد نظر المسلمون إلى الأخلاق على أنها منهاج عملى غايته التعاون فى الحياة واحترام القيم الإنسانية وحسن المعاملة ، بينما نظرت الفلسفة اليونانية إلى الأخلاق على أنها جانب نظرى من النشاط العقلى خاضع للجدل والنقاش .

وقد رسم الإسلام للأخلاق منهجا واسعا مرنا يسير التطبيق فى مختلف العصور والبيئات ، وجعل إطار القيم الأخلاقية واسعا رحبا ، يحقق الحرية الشخصية ويتقبل الجهود الفردية

.. أما الضوابط التى أقرها كقواعد أخلاقية فقد أقام بها حواجز متينة ضد الظلم والشر والفوضى ..

وقد أتاحت هذه الضوابط مع رحابة الإطار للعصور المختلفة القدرة على الحركة والتشكل واختيار الصور والأوضاع التى توفق بين القيم القرآنية الأساسية للأخلاق ، وبين التجارب والأحداث التى يقدمها تطور المجتمع . وذلك مما يحقق التقدم والحركة فى جو

من الحرية الفكرية مع التعبير عنها بما يلائم العصر ، دون تحفظ للضوابط ودون خروج على إطار الإسلام ومبادئه الأخلاقية العامة.

والأخلاق الإسلامية فى مجموعها تنبذ الميكافيلية وتؤمن بأن الغاية الشريفة لا يجوز أبداً أن يسلك إليها بوسائل غير شريفة .

والأخلاق الإسلامية كقوة إنسانية تسمو وتتسامى فوق كل مذهب فلسفى سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى مهما كانت شعاراته .

* * *

وقد رسم الفكر الإسلامى للعاطفة مفهوما قوامه الحركة فى نطاق الأخلاق، وقد رسم القرآن صورة العفة فى قصة يوسف ، ووقف موقفا صريحا صارما من علاقة الرجل والمرأة من حيث العفة، وحذر من العلاقات غير المشروعة وأوجب على مرتكبها أقصى الحدود، وحبب فى الزواج ويسر أسبابه قال تعالى «قد أفلح المؤمنون.. ..والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » ، وقال : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن » .

* * *

وقد واجه مفهوم الأخلاق فى النظرية الإسلامية تحديا خطيرا من الفلسفات المادية الغربية وذلك بعد تطور مفاهيم الفلسفة وظهور نظريات (ميكافيلى وداروين وفرويد وماركس ودوركايم) وفلسفات (نيتشه) ونزعات السريالية والوجودية .

والحق أن مصادر الأخلاق كانت دائما مرتبطة بالعقيدة ، وقد كانت الدعوة المادية تحاول أن تقيم مفهوما للأخلاق منفصلا عن العقيدة .

وكانت نظرية (ميكافيلى) فى فصل السياسة عن الأخلاق مقدمة لفصل الاقتصاد عن الأخلاق وكذلك فصل الاجتماع عن الأخلاق ثم فصل الدين عن الأخلاق وكذلك فصلها عن الأدب والفن.

وأخطر ما واجه مفهوم الأخلاق من تحديات هو « تحدى الالتزام » . ووجه الخلاف بين الأخلاق فى الإسلام ومفهومها فى الفلسفة المادية واسع المدى ، بعيد متباين فالأخلاق المادية تقوم على أساس مستمد من التراث اليونانى والرومانى ومن هنا كانت أبرز مظاهره انقساماً لا حد له بين نظرتين :

١ - نظرة تقول بالصراع بين البشر وبين الله . والخصومة بين الآلهة عندهم وبين الناس، فالآلهة تنتقم من الناس فى وحشية وعنف لتنفرد وحدها بالقوة ، ومن هنا كان ذلك الصراع والتحدى لله وتوهم التغلب عليه بالسيطرة والإغراق فى المتعة والحس.

وقد اتصل هذا المعنى الإغريقي بالفكر الروماني الذي يقيم فلسفته على أساس أن أهل روما هم السادة ، والناس جميعا خارجها عبيد ، ومن ثم علا مذهب المتعة ، وينتقل الإنسان من نعيم إلى نعيم وساد الفساد والانحطاط وقام كل شيء على أساس القوة وعبادة القوة اعتقادا بأنه بها وحدها ينال الإنسان الثروة ، وكانت الفكرة المسيطرة هي استغلال الأمم لمصلحة روما .

٢ - ونظرة تقول بالرهبانية القائمة على تعذيب الجسم بحسبان أن ذلك يشكل مثلا كاملا في الدين والأخلاق ومن هنا كان الاحتباس في الأديرة ، وإلغاء الزواج ، وغيره مما هو مضاد للفطرة الإنسانية وتقييد للطبيعة ، وقد كان لذلك رد فعل عنيف في انفجار حركة الإباحة المادية العاتية .

* * *

وقد ورثت الحضارة الغربية هاتين النزعتين وتطورتا حتى جاء عصر النهضة فأعلى من قدر (الطبيعة) ثم دعا إلى عبادتها ثم أعلى من قدر «الإنسان» فأصبح معبودا ثم ظهرت نظريات (دارون وماركس وفرويد) وكلها تحاول أن تفرد الجانب المادي بالأهمية أو بالأحرى الجانب الحيواني في الإنسان بالحياة وتنكر جانبه الروحي .

ومن هنا تحول مفهوم الأخلاق عن مصادره وزاد في اضطرابه

ما دعا إليه ميكافيلى من السلطة الأوتقراطية كوسيلة لترويض الإنسان الذى وصفه بأنه مطبوع على الشر وأنه أقرب إلى الحيوانات منه إلى الملائكة . كما دعا إلى أن الغاية تبرر الواسطة ثم جاء (فرويد) فدعا إلى إطلاق الغرائز الحسية إطلاقا كاملا .

ثم أعلن (دوركايم) أن نظام الأسرة والجماعة ليس نظاما فطريا ، ثم جاء القول بأن الأخلاق خاضعة للظروف المعيشية ، لكل مجتمع ، وهكذا حاولت الفلسفة المادية الغربية أن تجرد الأخلاق من قوة الإلزام » والواجب والضمير الخلقى .

بينما لا يمكن أن توجد الأخلاق كقوة فاعلة فى المجتمع دون قوة « الإلزام » إيمانا بأن الإلزام هو العنصر الأساسى أو المحور الذى تدور حوله المشكلة الأخلاقية [1] .

إن زوال فكرة (الإلزام) يقضى على جوهر الحكمة العملية التى تهدف إليها الأخلاق، فإذا انعدم الإلزام انعدمت المسئولية ، وإذا عدمت المسئولية ضاع كل أمل فى وضع الحق فى نصابه ، وإقامة أسس العدالة .

ومفهوم (الإلزام) يقتضى أن تكون الفضيلة قوة كامنة إذا ملأت

---

(١) بتصرف عن بحث للدكتور (محمد عبد الله دراز) .

نفس المرء حفزته إلى العمل النافع وإلى النشاط المستمر ، حيث تتحول الفضيلة من قوة معنوية فى النفس إلى قوة حسية ، ويكون « الخير الأخلاقى » بمثابة سلطة ملزمة يتقيد بها الجميع .

وقد دعا الإسلام إلى الإلزام الخلقى ، وكشف عن أن النفس الإنسانية عرفت منذ تكوينها الأول معنى الخير والشر :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »

وقد ألهمت النفس « الحدس الخلقى » فعرفت طريقى الفضيلة والرذيلة « وهديناه النجدين » وقد تنحرف الطبيعة الإنسانية نحو الشر ولكن الإنسان قادر على أن يردها ويستعيد سيطرته على قيادها ، وفى النفس قوة كامنة تهيئ النصح ، وتحدد للإنسان ما يجب عمله وما يجب تحاشيه .

هذه السلطة التى تسيطر على قدراتنا ، وعلى غرائزنا هى أسمى جزء من نفوسنا وهى « العقل » وسلطة العقل هى السلطة الشرعية الوحيدة ، وخارج ما يأمر به العقل لا تكون هناك قاعدة أو سلوك له ما يبرره .

والنفس الإنسانية فى تقدير « القرآن » ليست شريرة فى أصلها ولا يفسد الإنسان إلا عدم استخدامه القوى والمواهب التى أودعها الله فى نفسه « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين

لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

والأمر فى (الإلزام) الخلقى متوقف على مدى استخدامنا للقوى العليا التى أودعها الله إيانا ، وتنمية هـذه القوى وتزكيتها « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها »

كما عنى القرآن كذلك بإيقاظ مشاعرنا النبيلة بشرط أن تعمل هذه المشاعر تحت رقابة العقل ، والقرآن يدعونا دائمـا إلى أن نزن الأمور بميزانها الصحيح ، قبل أن نحكم على قيمتها .

كما يثير (القرآن) مشاعر الأخوة والاحترام والكرامـة الإنسانية ، وقد احتاط القرآن للإلزام احتياطا شديدا ، فقرر أن الإلزام عن الرسول لا يكون إلزاماً حقيقيا إلا إذا كان مصدره الوحى .

« استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لمـا يحييكم »

وفى هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنمـا أنا بشر ، ولكن إذا حدثتكم عن الله فخذوا عنى فإنى لا أكذب على الله » .

وقد يختلف رأيه عليه الصلاة والسلام فى تقدير أشياء الحياة المادية « أنتم أعلم بأمور دنياكم » وقوله : « إذا نسيت فذكرونى » .

(٣)

أثارت الفلسفة المادية الغربية قضية هامة ، أخذت صورة « المعضلة » قوامها تطور الأخلاق بالنسبة لعامل الزمن أو لعامل المكان ، وتنوع الطبيعة واختلاف ظروف الحياة من ناحية أخرى مما دعا كثيرا من الفلاسفة الأخلاقيين الغربيين إلى الدعوة للتحرز من المبادئ الهامة والمثل العليا وتركيز الجهود على اللحظات الحاضرة وكان ذلك مما دعا الغيورين إلى التوفيق بين مثال عال للأخلاق وبين الحقيقة الواقعة التي يعيشها الناس ، بحيث يمكن أن يتحقق للفعل الأخلاقي « الثبات » الذي يتسم به كل قانون عام مع التنوع الذي يلائم ظروف الحياة .

والواقع أن القرآن قد تنبه لهذا الملحظ منذ أربعة عشر قرنا ووضع حلا لهذه المعضلة ، فقد أقام الالتزام الخلقي على قاعدة قوامها مراعاة الاستطاعة وذلك في قوله تعالى :

« فاتقوا الله ما استطعتم »

ويقوم هذا النص القرآني على أساس مفهوم « العمل الأحسن حسب وحي الساعة » وبهذا يتحقق « التوفيق بين أوامر الله ومقتضيات الواقع ، ويجمع بين الاتجاهين : لا تحديد صارم ولا ترك كامل » .

ووفق مفهوم القرآن فإن ضمير المؤمن لا يسمح له بأن يقوم بأفعال غير مشروعة إلا إذا كان أمام ضرورة ملحة لا محيص عنها وفى نفس الوقت فإن الله سبحانه يصفح عن خطأ من أخطأ بغير تعمد: « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم » وعلى المؤمن فى حال الشك أن يتبين فى إخلاص ما يتفق مع أوامر الله ، فإذا أخطأ بعد ذلك فهو ليس بمذنب ، فإذا اشتبهت عليه الأمور فعليه أن يتقى الشبهات : « ولا تقف ما ليس لك به علم »

وقد أوضح الرسول هذا المعنى فى قوله :

« الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » .

وقوله : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة » .

وفى الترجيح بين الشر والخير ، قول الرسول : « استفت قلبك » فى أيهما البر وأيهما الإثم ، على نحو واضح ، والبر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر .

* * *

وقوام موقف القرآن من الالتزام الخلقى يتمثل فى أمرين :

أولا : دعوته إلى اتباع القواعد العامة التى أمر الله بها مع ترك حرية التصرف والاختيار للمرء فى نطاق التفاصيل التى تعرض تبعا لتغير ظروف الحياة .

ثانيا : لا يدعى القانون الأخلاقى فى القرآن : أن هناك طريقة واحدة لفهم القاعدة ،أو أن هناك طريقة واحدة لتطبيقها، أو أن هناك طريقة واحدة للتوفيق بينها،وبين القواعد الأخرى، فإن القاعدة مهما بلغت من الدقة والإحكام فإنها تترك أحيانا بعض التفاصيل دون تحديد .

وهنا يظهر مجال « الاجتهاد » الشخصى والتفكير الحر المستقل، والاعتماد على ملكة العقل التى أودعها الله الناس .

والمجهود الفردى واجب فى نطاق الإخلاص ، وهو مجهود يحبذه القرآن ويدعو إليه .

ومن مضمون هذه النظرة إلى « الالتزام الخلقى » فى مفهوم الإسلام، نجد حلا جذريا للمعضلة التى أثارها الفلاسفة الغربيون، قوامها وسطية الإسلام وتكامله وقدرته على الحركة دون أن يجنح إلى الجمود ، أو التعصب ، أو الانحراف .

والأخلاق فى مفهوم الفلسفة المادية إما فردية أو جماعية ، بينما هى فى مفهوم الإسلام توفق وتجمع بين الفردية والجماعية

فى وسطية وتكامل ، فالفرد الممتاز هو نتاج الجماعة ، والجماعة تتقدم فى طريق النهضة بالممتازين من أبنائها .

وقوام الأخلاق فى الإسلام : « الحرية والاختيار » فلا أخلاق بلا حرية ، كما لا تكليف بغير اختيار ، والإرادة حركة داخلية نفسية صرفة ، لذلك يقرر الإسلام أن المكره إذا فعل ما يكره عليه ، كان له عذره ، وقد سمى الإسلام (حرية الإرادة) : الكسب والاختيار وجعلهما مناط التكليف ومدار العمل الخلقى .

ومن حرية الاختيار أن يكون العمل الخلق متصفا بالطواعية والانبعاث من أعماق النفس حتى يكون صادراً عن إرادة طيبة فى حب الخير والحق والفضيلة[1] .

---

(١) بتصرف عن نص للدكتور (إبراهيم سلامة) .

(٤)

ذاعت نظرية دخيلة إلى الفكر العربى الإسلامى تقول :

« إن الأمة ليست بحاجة إلى الدين ولكنها بحاجة إلى الأخلاق التى هى وحدها ترفع الأمة إلى مستوى الأمم الراقية وليس الدين » .

وتلك نظرية خطيرة فى مفهوم الإسلام الذى يقوم على أساس التكامل بين القيم دون الفصل بينها ، فليس هناك أخلاق منفصلة عن العقيدة على أساس أن المسئولية الأخلاقية هى مسئولية جزاء والجزاء جزء من الدين ، فلو استقر فى النفس أنه ليس هناك دين يقرر البعث فمعنى هذا أن ليس هناك جزاء ، وهناك لا تكون للأخلاق قيمتها الحقيقية المندفعة من أعماق النفس ، وقد أجمع كثير من الباحثين على أن « العالم » فى العصر الحديث قد تضخم عقله وضعفت روحه وتأكد أن الأخلاق لم ترتق ارتقاء مناسبا مع تقدم العلوم ، وأن العلوم قد تقدمت خلال القرون الأخيرة فى جميع الميادين بلا استثناء ، فى حين أن الأخلاق إذا كانت قد ارتقت فى بعض الميادين فإنها انحطت انحطاطا صريحا فى ميادين

أخرى ، والواقع أن تقدم العلوم لم يتضمن تقدم الأخلاق بل على العكس من ذلك فقد صاحب تقدم العلوم جمود فى الأخلاق عن التقدم ، فإن اغترار الإنسان بقدرته التى لا حد لها على الكشف والاختراع ، قد نزع عنه عقيدة الدين أساسا ، ثم كانت انطلاقة الغرائز واللذات عاملا مؤثرا على فكرة «الالتزام الخلقى» وغلبة مذهب المنفعة والأنانية ، بالإضافة إلى عزل الأخلاق والدين عن مجال التربية والتعليم فى الغرب ، كل هــذا قد أدى إلى انعزالية الأخلاق .

وفى هذا يقول «جود»: أستاذ الفلسفة الإنجليزية فى كتابه : (سخافات المدنية الحديثة): «إن المدنية الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق ، ومنذ النهضة ظل العلم فى ارتقاء ، والأخلاق فى انحطاط . وقد غلب على الفكر الغربى طابع التحرر المطلق ، فى مجال المجتمع والمرأة والفن، وظهرت الدعوة إلى غلبة الجماليين على الأخلاقيين، وطغيان فكرة الفن للفن، ولا شك أن هذه الحركة كانت رد فعل أكيد لمفاهيم المسيحية الغربية فى الأخلاق ، هذه المفاهيم التى قامت على أساس الحرمان والرهبنة وتعذيب الأجساد بما يعوق

الفطرة ، مما خلف انفجارا طاغيا فى الدعوة إلى « التحرر » فالتحلل وظهور مذاهب تجدد الدعوة إلى الإباحة الأخلاقية (الأبيقورية القديمة) بحسبان أن اللذة الجسمية هى الغرض الأسمى من الحياة ، وأن العقل والتفكير هو أكبر معول فى هدم الإنسانية .

وكذلك كان ذيوع نظرية (فرويد) فى السلوك الجنسى وظهور الوجودية بمثابة رد على تحدى الحربين العالميتين الأولى والثانية ، وكل المذاهب الفلسفية تظهر فى مواجهة تحديات ، وهى تحديات متموجة ، فالنزعة الأبيقورية تظهر فى مواجهة النزعة الرواقية ، والإلحاد يظهر فى مواجهة الجمود ، والتحلل يظهر فى مواجهة الرهبانية ، والزهد يظهر فى مواجهة الترف .

ويرى الباحثون أنه لا توجد نظرية طبيعية تظهر من فراغ ، وقد حاولت هذه المذاهب إطلاق حرية الإنسان إطلاقا كاملا ، والسخرية من (الالتزام الخلقى) بحسبان أن المجتمع عدو للإنسان وقد قامت على أساس القلق والضياع والعدم ، وكلها نظرات وفلسفات مرتبطة بواقع المجتمع الأوربى وظروفه بعد الحربين العالميتين .

* * *

وفى قضية «الدين والضمير» : يقول الأستاذ (عبد المنعم خلاف) :
شاعت فى هــــذا العصر خاصة الدعوة إلى الاستغناء عن الأديان ذات العقائد المرتبطة بالكون وخالقه والإنسان ووضعه ومصيره وذات الرسوم والشعائر والعبادات . اكتفاء بالضمير الإنسانى الوازع إلى فعل الخير والبر وحسن المعاملة والتماسك أمام الشهوات .

وفى رأى أصحاب هذه الدعوة أنها جديرة إذا اعتنقت أن تمحو كثيرا من أسباب الخلاف والنزاع والحروب التى تنشب بين الناس بسبب اختلاف العقائد والأفكار حول الكون والخالق والنبوة والرسالة وتفسير الحياة والموت . وبيان وضع النفس ومصيرها فى الكون .

وقد ذهب أصحاب هذه الدعوة قدماء ومحدثين إلى أن الصفوة الممتازة من ذوى العقول والجهلاء والدهماء ومن يليهم السعى لسد حاجات عيشهم المادى فى أدوار حياتهم إلى نهايتها عن التفكير فى مسائل العقائد الدينية ، كما ذهبوا إلى القول بأن الفضيلة ثوابها وقيمتها فى ذاتها لا فى جزائها الذى تعد به الأديان، وأن فعل الخير وترك الشر لا يفيد تهذيبا ولا فضيلة وأن الاعتقاد فى هـــذه الرغبات من الخير ومن الزواجر عن الشر ،

ليس خرافة ووهما ضارا فقط ، بل هو مفسدة للعقول ، وخاصة عقول الأطفال .

ورأى القرآن قاطع فى أصحاب الفضائل والأعمال النافعة ممن لا يؤمنون بالله وحده ، فقد قضى أن من يخرج على ذلك تهدر قيمة فضائله الذاتية وأعماله الخيرة .

ويجب التفرقة بين وظيفة العقل ووظيفة الضمير ، ومجالات كل منها ، فللضمير حساسية بالخير والشر ، والمعروف والمنكر وهو الذى وضع قائمة الأخلاق والفضائل لحل مشكلة التعايش بين الناس هنا فى الدنيا ، أما العقل فمجاله البحث عن الأسباب والأسرار لحل مشكلات الفكر والاعتقاد .

ومن هنا يثبت القصور والعجز لدى المذاهب المادية الإلحادية المعاصرة التى تحاول حبس التطلع العقلى الإنسانى فى البحث عن حلول لمشكلة العيش وحدها بدون نظر لما وراء العيش المادى الموقوت المحدود من مسائل عقلية حول الكون وما وراءه ، وعلاقة الإنسان به ومبدأ كل منهما ومصيره .

نعم ؛ إن حياة الضمير الوازع إلى الخير ، والزاجر عن الشر ، هى خلاصة حياة التدين العملى ، وهى التى تعنى المجتمع ، ولكنها ليست كل شىء فى حياة التدين على إطلاقه ؛ بل ليست أهم شىء

فيه ، ولا بد لها من إطار عقلى صحيح ، صحيح أن الناس تعودوا ألا يفرقوا بين الإيمان والعمل عند الحكم على دين الأشخاص ، لأن العمل هو جسم الإيمان ، والإيمان هو روح العمل .

غير أن ذلك لا يبيح لنا أن نقول إن العمل الصالح هو كل الدين، وأنه يعفى صاحبه من اعتناق العقيدة الصحيحة التي تنسجم مع بناء الكون ومنطق العقل . ومن اتباع الشعائر والمراسم التى وضعتها تلك العقيدة للعبادات تنظيما وتنسيقا وعلامات فى حياة المؤمنين ، وطابعا وشعاراً لمناسكهم وتدريبا لهم على فضائل معينة ،وليست الشعائر والمراسم إلا لتدريب النفوس على التلاقى فى نظام وتناسق جماعى على مظهر من مظاهر العبادة،وإلا إخضاعا لقواعد عامة لتلك الأفراد وتنظيمها جميعا .

كذلك لا يغنى أحدا أن يكون فاضلا صالحا ذا ضمير حى وعمل نافع عن أن يؤدى الشعائر والعبادات التى وضعها ونظمها الدين ليؤديها الأفراد والجماعات . كذلك لا يغنيه عمله الصالح وفضله الذاتى عن أن يقدم الاعتراف بسيد الكون أولا .

ورأى القرآن فى هذا وهو الرأى الحاسم :

« مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء » .

والواقع أن الإسلام فى مفاهيمه الأساسية يستطيع أن يتحامى هذه الأخطار فلا يواجهها بمثل ما واجهها به الفكر الغربى .

وأن تظل الشخصية الإنسانية سليمة من عوامل الاضطراب والقلق والضياع والتفسخ ومن عوامل قدرتها على الصمود أمام الأخطار أنها تتحرك فى نطاق فكر موحد . طابعه الوسطية والتكامل ومن شأن الأخلاق فيه أن يمثل جزءا لا ينفصل ، وأن الالتزام الأخلاقى قائم على أساس الحرية .

وبالجملة فقد ربط الإسلام :

أولا : بين الأخلاق والدين ، وميز بين الآداب بحسبانها (السلوك الاجتماعى والكياسة) وبين الأخلاق (أعمال الإنسان المنبعثة من نفسه بعد روية وإرادة) .

ثانيا : الأخلاق معرفة وعمل ، والعقل يستطيع أن يحكم فيما هو خير وشر .

ثالثا : تبنى الأخلاق على الاعتدال والتوسط ، ولابد من الجمع بين فضيلة العلم والعمل ، والأخلاق الحميدة مبنية على الإرادة والروية لا على الشهوة والانفعال النفسى .

رابعا : المبادىء الأخلاقية فى الإسلام لم تكن مجرد

وعظية نظرية بل مبادئ إيجابية حكمية نبتت من الواقع والتحليل العلمى للسلوك الإنسانى ولم تكن تستهدف تكوين عادة الخير فقط بل خلق وازع داخلى ومقاومة دافع الشر .

خامسا : أساس الأخلاق فى الإسلام : الالتزام - والالتزام الخلقى فى القرآن يقوم على مراعاة هذه الحقيقة المزدوجة (فاتقوا الله ما استطعتم) .

وبذا عادل الإسلام ووازن بين الاتجاهين :

« الانطلاق والانضباط »

ويتصل بهذا مفهوم الفكر الإسلامى كله :

المؤمن لا يعمل عملاً مشروعا إلا أمام ضرورة ملحة .

والله يصفح عن الخطأ غير المتعمد .

« وليس عليكم جناح فيما اخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم » .

وفى هذا المجال يدعو مفهوم الأخلاق إلى اتقاء الشبهات « ولا تقف ما ليس لك به علم » .

(والحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه) .

« دع ما يريبك إلى مالا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة » .

ويرسم الرسول صلى الله عليه وسلم مفهوم الخير والشر :

« استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك في الصدر وتردد في النفس » .

وهكذا يحتضن الإسلام مفهوما مرنا وسطا قائما على الالتزام الخلقي :

« اتباع القواعد العامة مع ترك حرية التصرف والاختيار للمرء في نظام التفاصيل تبعا لتغير الظروف ، ولكن لها جانب من المرونة في الاختيار والتصرف ومنها مجال الاجتهاد الشخصي والاعتماد على العقل » .

القضية السابعة

الإسلام والأدب

(١)

من أهم الشبهات التى تثار ، ما يتصل بحرية الأدب وإطلاقه من قيود الأخلاق وقد عرض لهذا كثير من الباحثين ، منهم الدكتور (محمد محمد حسين) الذى يقول فى هذا الصدد :

إن أكثر ما يذاع من هذا (الأدب الهدام) إن جاز لنا أن نسميه أدبا يتستر تحت اسم مذاهب فنية أو دراسات علمية فباسم الروماتيكية والوجودية كتبت ألوان من الأدب ـ شعره ونثره ـ يطبعها طابع الأنانية والانطواء على النفس الذى يورث الهم القاتل لكل همة حينا ، فتجد النفوس السقيمة لذتها فى الشكوى والبكاء ، وفى أن تحيا كالبوم والخفافيش فى الظلام ، أو العكوف على الشهوات الصارف عن كل خير حينا آخر ، وباسم الواقعية وباسم التحليل النفسى ظهرت ألوان من الأدب ومن القصص خاصة تخوض فى أوحال الرذيلة ، وتعرض خفايا العورات ،

وتجرح كثيرا من الفضائل بزعم أنها تورث الكبت ، وتبرر كثيرا من الرذائل باسم التنفيس ، وتسقط التبعية فى كثير من الجرائم بزعم أن أصحابها مصابون بأمراض نفسية ، وباسم التحرر واستقلال الشخصية شاعت دعوة إلى إعادة النظر فى كل مواريثنا الخلقية ومعاييرنا الاجتماعيـة . وإلى الخروج على كل ثابت مقرر مما توفره التقاليد ويقدسه الدين ، وإلى أن يبنى كل فرد لنفسه عالما مستقلا من القيم ، تصبح معه مقاييس الخير والشر فردية ، فلا يكون هناك خير هو خير عند كل الناس ولا يكون هناك شر هو عند كل الناس شر ، وعندئذ لا يصبح هناك مجتمع ، لأن الروح الجماعية هى أساس كل تماسك اجتماعى ، لا يكون هناك إلا الفوضى والخراب ، وباسم البحث العلمى والموضوعية راجت ألوان من الدراسات الأدبية والنقدية ، موضوعها آداب قذرة ماجنة ، زعم الزاعمون أن من مقتضيات المنهج العلمى أن يحترمها الدارسون حين يتناولونها بالدرس ، وأن لا يعلقوا عليها بما يغض من قدرها أو يسفه مذاهب صحابها . .

والواقع أن كثيرا من الآداب والدراسات التى تتزى فى عصرنا هذا بزى الفن والعلم ، وتتستر تحت اسمها ليست من النزاهة فى شىء ، فكثير منها موجه لخدمة مذاهب معينة ، وتدعيم

اتجاهات مغرضة ، وتحقيق بعض الخطوات المرسومة فى خطة من خطط هذه المذاهب والمصالح والاتجاهات .

ومن شاء فليقرأ خطط الصهيونية العالمية الهدامة المشهورة باسم «بروتوكول حكماء صهيون» ليقرأ ما جاء فى البروتوكول الثانى :

(أما غير اليهود فإنهم لا يستفيدون من تجارب التاريخ التى تمر بهم ، ولكنهم يتمسكون بنظريات روتينية دون تفكير فى النتائج التى يسفر عنها هذا المسلك . لذلك فنحن لا نعير غير اليهود أية أهمية . فليلهوا ما طاب لهم اللهو حتى ينقضى الوقت ، وليعيشوا على أمل ملذات جديدة ، أو فى ذكرى متع سالفة ، وليعتقدوا أن هذه القوانين النظرية التى أوحينا بها إليهم ذات أهمية قصوى . فبهذا الاعتقاد الذى تؤكده صحافتنا نزيد من ثقتهم العمياء فى هذه القوانين ، يجب ألا يكون هناك إعتقاد فى أن مناهجنا كلمات جوفاء . فنحن الذين هيأنا لنجاح (دارون وماركس ونيتشه) . ولم يفتنا تقدير الآثار السيئة التى تركتها هذه النظريات فى أذهان غير اليهود) .

وليقرأ ما جاء فى البروتوكول الرابع :

« إن لفظ الحرية » تجعل المجتمع فى صراع مع جميع القوى ، بل مع قوة الطبيعة وقوة الله نفسها « جل الله وعلا » على أن الحرية قد لا تنطوى على أى ضرر . وقد توجد فى الحكومات وفى البلاد دون

أن تسىء إلى رخاء الشعب . وذلك إذا قامت على الدين والخوف من الله. والإخاء بين الناس. المجرد من فكرة المساواة التى تتعارض تماما مع قوانين الخليقة ، تلك القوانين التى نصت على الخضوع. والشعب باعتناقه هذه العقيدة سوف يخضع لوصاية رجال الدين ويعيش فى سلام ، ويسلم للعناية الإلهية السائدة على الأرض ، ومن ثم يتحتم علينا أن ننتزع من أذهان المسيحيين فكرة الله ، والاستعاضة عنها بالأرقام الحسابية والمطالب المادية) .

ولنقرأ ما جاء فى البروتوكول الخامس :

ولكى نطمئن إلى الرأى العام يجب بادئ ذى بدء أن نربكه تماما ، فنسمعه من كل جانب وبشتى الوسائل آراء متناقضة لدرجة يضل معها غير اليهود الطريق فى تيههم فيدركون حينئذ أن أقوم سبيل هو ألا يكون لهم أى رأى فى الشئون السياسية ، والسر الثانى الملازم لنجاح حكومتنا يقوم على مضاعفة الأخطاء التى ترتكب والعادات والعواطف والقوانين الوضعية فى البلاد ، لدرجة يتعذر معها التفكير تفكيرا سليما وسط تلك الفوضى) .

ولنقرأ ما جاء فى البروتوكول التاسع :

(ولكى نحطم التنظيمات التى أقامها غير اليهود عاجلا ، فإننا

قد دعمناها بخبرتنا وأمسكنا بأطراف أجهزتنا ، فقــد كانت الأجهزة تسير فى الماضى بنظام صارم ولـكنه عادل ، فأحللنا محله نظاما متحررا غير منتظم ، ووضعنا يدنا على التشريع ، وعلى المناورات الانتخابية ، وتحـكمنا فى إدارة الصحافة وفى نمو الحرية الفردية ، والأهم من ذلك كله إشرافنا على التعليم وهـو المعول الرئيسى للحياة الحرة) .

من هذه النصوص التى تفسر كثيرا مما يصطرع فى العالم الآن من مذاهب ونحـل ، يبدو أننا لا نغـلو فى القول حين نطالب بالاحتياط فى قبول كل ما يرد على النـاس باسم الفن والعـلم ، وحين ندعو الناس إلى أن يعرفوا حدود طاقاتهم وإلى أن يحددوا ميادين العقل وميادين التجريب .

إننا لا ندعو إلى مصادرة البحوث النفسية والاجتماعيـة والخلقية ، فذلك ما لا يدعو إليه مفـكر يقــدر نعمة العقل ، ولـكننا ندعو إلى تقييدها بالدين ، لئلا تتفرق بالناس السبل ، ولـكى لا تمزقهم الخلافات الواسعة والمــذاهب المتصارعة المتناقضة .

وليس الدين قيدا فى حقيقة الأمر ، لأنه لا يعطل العقـل ، ولـكنه يحفظه من الضلال ، ويلزمه أصولا وقواعد ، هى كالسور الذى يعصم السالك فى الظلام من التردى فى الهاوية .

وهى مثل قوانين المنطق التى لا يعتبر التزامها حدا للتفكير ولكنه عصمة له ، وهى مثل الدستور الذى لا يعتبر تقيد الفقهاء به فى كل ما يقننون حدا من سلطتهم ، ولكنه ضمان لهذه السلطة أن تزيغ عن القصد ، عن علم أو عن غير علم .

« وقد كان من أثر سيادة هـــذه المذاهب الفردية الهدامة أن شاع فى شباب الكتاب وفى بعض شيوخهم موجة من النقد تهاجم الشعراء الذين يهتدون بالمجتمع وتتناولهم بالتحقير ، وتخرجهم من زمرة الشعراء والأدباء حين تصنفهم ـ على سبيل الاستهزاء ـ بأنهم شعراء المناسبات ، أو بأن ما يكتبونه ليس أدبا ، ولكنه وعظ . وكأنه قد أصبح من شروط الأدب أن تخرج موضوعاته عن حدود الأدب ، وأن يلتزم التعبير عن جوع المنحرفين إلى الشهوات .

وقد كانت القصة هى أبرز ما استحدث من فنون الأدب بعد الحرب العالمية الأولى ولم تلبث أن طغت على سائر فنون الأدب حتى أخملت الشعر أو كادت ، ورحبت بها الصحف على اختلاف ألوانها ، وجعلها الكثير منها بابا من أبوابها الثابتة استجابة لرغبات جماهير القراء ، الذين أقبلوا عليها إقبالا شديدا ،

وساعد على رواجها بروز المسرح ثم ظهور السينما وتقدم صناعتها وأعان على هـــذا الرواج سهولة تذوق القصة ، وهي مع ذلك أكثر ملاءمة للشباب ، لأنها أقدر على توفير الأجـواء الحالمة التي تلائم سن المراهقة خاصة ، مما يجعلها أقوى الفنون الأدبية تأثيرا عليه وأخطرها في توجيهه .

وقد زاد في خطورتها سهولة تناولها وصعوبة التمييز بين الجيد منها والردىء على غير العارفين من العلماء وناضجي التفكير .

فما أسهل أن يملأ الكاتب - أي كاتب - صفحات وصفحات بقال وقالت وبحكايات ملفقة ، ولا سيما بعد أن هجر الناس اللغة الفصيحة التي لا يستطيعها إلا المثقفون ، إلى لغة الأسواق التي لا يتميز فيها عالم عن جاهل ، باسم الواقعية وباسم الشعبية ، لذلك ، ولما لمؤلف القصة من حرية واسعة في تصريف أحداثها ورسم شخصياتها أصبحت من أخطر الأدوات تأثيرا في المجتمع ، وتجرأ على كتابها القادرون عليها وغير القادرين ، والناضجون من أصحاب المواهب والتافهون من الأغرار والجهال .

واندس بين هؤلاء كثير من مرضى النفوس ومن ذوى الأهواء وممن ينقلون حين يترجمون أسوأ ما قرأوا من قصص الغرب المبتذلة ولا يتكلفون حين يؤلفون أكثر من تغيير الأسماء ، وبذلك أصبحت القصة معرضا للنماذج المنحرفة الشاذة المثيرة لأحط الغرائز ، وتعبيرا عن أمراض النفوس وانعكاس المعايير والتنفيس عن الشهوات »[1] اهـ .

---

(١) دكتور محمد محمد حسين : اتجاهات هدامة فى الفكر الغربى المعاصر.

(٤)

وتقـول السيدة (تازك الملائـكة) فى بحثها القيم عن الأدب والغزو الثقافى :

« يحرص الغزاة وأعوانهم من الشعوبيين على قتل المعنوية العربية وإحلال المعنوية الغربية محلها ويـكادون اليوم ينجحون فى ذلك ، فقـد طلع فى السنوات الأخيرة أدب عربى تنعكس فيـه سمات النفسية الأوربية ، ومظاهر الأدب الغربى ، وقـد استعان الغزاة فى عملهم هذا بوسائل معنوية مكنتهم من اجتذاب الجيل العربى الناشىء الذى يملك بقلة علمه وتجاربه ، استعداداً فطريا للتأثر . والوسيلة الـكبرى للتأثير فى اليافعين هى استعمال القيم الرفيعـة التى يحرصون عليها مثل الإنسانية والحرية فباسم هذه القيم يتم تضايلهم .

أما الإنسانية فإن الشر الذى يتستر وراءها اليوم هو قولهم (الأدب العالمى) وبه يوحون لليافعين أن هناك أدبا عالميـا يتخطى الحدود ويعبر عن نفسية الشعوب أجمعين . بمعزل عن

ظروفها وشخصيتها ، وأن هذا الأدب لا يناقش وإنما يقبل فى كل مكان ، فمن لم يقبله كان جامداً أو رجعيا ، أو جاهلا .

وهم يضعون على عرش العالمية مجموعة من الأسماء الغربية فى الغالب ويسألون الشباب أن يعجبوا بكل حرف يقوله أصحابها دونما فحص أو مناقشة .

والأدب الغربى قد يكون عظيم الشهرة ، ذا تأثير فى أوربا كلها دون أن يعنى ذلك أن آراءه تنفعنا أو تتفق مع مطاليب حياتنا الاجتماعية والفكرية . والواقع أن أغلب آراء (سارتر) تناقض روحيتنا وحضارتنا فلا مصلحة لنا فى اعتناقها إلا إذا أردنا أن نهدم أنفسنا ، ذلك أن (جون بول سارتر) : ناشر فلسفة الغثيان ، ومضمونها أن المجتمع يغيض وأن وجود الناس حولنا هو الجحيم ، وأن الأخلاق والمثل والتقاليد سخافات يتلهى بها السطحيون ، وأن الحياة خواء فارغ فلا يستحق الاهتمام فيه إلا الجسد والجنس وأن الإنسان غير مسئول لا أمام الله ولا أمام الضمير ولا أمام المجتمع . ولقد انتهى الجيل اليافع إلى تصديق خرافة العالمية فلم يقف عند الإعجاب بالأشكال الأدبية واللفتات الفكرية والأساليب التعبيرية ، وإنما قلد النظرة واعتنق الآراء .

وأما القيمة الثانية التى يستغلونها فى تضليل اليافعين العرب ،

فهى الحرية ، وقد زعموا أنها معنى مطلق لا يتقيد بشىء ، فكل حرية أفضل من كل تقيد .

وما من إلحاد اجتماعى وأخلاقى أفظع من هذا ..

فإن المطلق معنى لا وجود له فى الحياة الإنسانية ، لأن منفعة الجماعات تتحكم فيه فتقيده وتشذ به .

وهذا الزعم يجعل الحرية تتعارض مع الفضيلة ، ولا ينبغى للأخلاق أن يتعارض شىء منها مع شىء ، وحسبنا دليلا على ذلك التعارض أن الحرية المطلقة للفرد تناقض مصلحة المجتمع .

ولذلك تقيد بحفظ حقوق الآخرين ، ومصلحة الجماعة كلها .

وعلى هذا تبطل حجة الذين ينادون بحرية الأديب فى نشر أدب الجنس والإلحاد ، فإن هذا الأدب يهدم المجتمع ، ومن حق الجماعة أن ترفضه فلا يحق للمواطن أن يطعن أمته فى صميم كيانها الروحى والخلقى بدعوى حقه من الحرية .

وهكذا اتجه أدبنا الحديث بدوافع من الإنسانية وحرية الفكر ، إلى ترديد آراء الغربيين ، دونما فحص أو مناقشة ، فانتشرت روحية التشاؤم فى أدبنا وشاع الإحساس بأن الحياة عبث ، وأن العدم خير من الوجود ، وأن المشاعر الطيبة « قيد »

للإنسان ، وأن الإنسان غير مسئول أمام شيء ، ولا يمكن للباحث المتأمل إلا أن يلاحظ مدى بعد هذه النظرة عن طبيعة الحياة العربية اليوم ، فنحن نمر بفترة خصيبة رائعة ، وما من شك أن الفرد العربى أحسن حالا وأكثر أملا مما كان ، فلا ندرى من أين يأتى هؤلاء الأدباء بالعدمية واليأس وإنكار الحياة .

أترى حياتنا الأدبية تسير فى اتجاه معاكس لحياتنا القومية ؟

ونبحث عن الجواب عند نقادنا فلا نجد لديهم أكثر مما نسمع من الناقد الغربى من أن هذا الجيل - كما يقولون - (ذو تركيبة مزاجية معقدة تعقد الحياة التى يحياها) فكأنهم لا يرون الفرق العظيم بين الفرد العربى والفرد الأوربى . والواقع أن بيننا وبين الغرب ثلاثة فروق جوهرية :

الأول : أننا أبناء أمة تؤمن بالروح والروحيات وتضعها فوق المادة ، بينما ما زال الغرب يؤمن بالمادة والماديات ، ومن مظاهر إيمان الفرد البسيط هنا بالروح أنه يتوكل على الله فى أموره كلها فلا يعرف اليأس ولا القنوط ، وهو مؤمن بالحياة كل الإيمان ، تنحدر إليه هذه النظرة من عهود سحيقة . وقد عرفنا فى التراث العربى كله صفة الإيمان والتفاؤل .

فحتى شعر الزهاد كان مليئا بالحياة بما فيه من تطلع إلى الله . وإيمان بالأخلاق والتضحية ومساعدة الآخرين .

الثانى : إننا نختلف عن الغرب فى الظروف التاريخية التى نمر بها ، فنحن نمر بفترة حياة وابتعاث تهتز لها أرضنا كلها ، إن مشاكلنا القومية وزحفنا نحو فلسطين ومعركتنا فى حرب الفقر كل ذلك يمنحنا هدفا يستغرق حياتنا وكياننا . والمعروف عند علماء النفس أن المشغولين لا يجدون وقتا للقلق واليأس والإحساس بالفراغ .

وفى مقابلنا يجد الغربى نفسه فارغا له كثير من الوقت وقليل من الأهداف. إن فى حياته فراغا روحيا عميقا سببه عدم إيمانه بالله وخلو حياته من الهدف الكبير الذى يضفى الجمال والرونق على الحياة .

الثالث : آخر الفروق بيننا وبينهم أن الغربى يرى غذاءه يصل إليه عن طريق استعمار الأمم وسرقة قوتها ، ومن ثم فهو يحس قلقا غامضا ، لا يعرفه العربى الذى يأكل القليل الحلال ، ويحمد الله وينهض إلى عمله .

* * *

إن هذه الفروق بيننا وبين الغرب تجعل نقلنا لموقف اليأس

والعدمية والفراغ أمراً لا معنى له سوى تخلينا عن كرامتنا ومصالحتنا وشخصيتنا ، فكأننا نبكى فى يوم عيدنا .

فاللون الذى يغلب على حياتنا لون أخضر بهيج ، وفى مثل هذا الإطار المشرق يصبح الأدب المتشائم المعلق على الصلبان أبعد ما يكون ، عن التعبير عن نفسية الأمة .

إلا أن أدباءنا وقفوا عن التعبير عن مشاعرهم وراحوا يكررون ما يقول الأديب الغربى . ا . هـ

القضية الثامنة

الإسلام والمجتمع

من أخطر الشبهات التي توجهها الفلسفة المادية الغربية إلى الإسلام شبهة الفصل بين الدين والمجتمع ، أو الدين والمدنية أو الدين والدولة فى مفهوم الإسلام . وقد جرى بعض الباحثين المسلمين هذا المجرى بيعض دوافع السياسة الحزبية فى الماضى أو ببعض المتابعة للفكر الغربى والنفوذ الاستعمارى فقالوا : إن الإسلام شريعة روحية محضة جاءت لتنظيم العلاقة بين الإنسان وربه ، أما ما بين الإنسان من المعاملات الدنيوية وتدبير الشئون العامة فلا شأن للشريعة الإسلامية به وليس من مقاصدها .

وقد واجه العلامة (فريد وجدى) هذا المفهوم فقال :

« إن قاعدة فصل الدين عن السياسة هى قاعدة أوربية محضة سبب حدوثها أن الدين فى أوربا توصل إلى تكوين سلطة مستبدة

قادت العامة والملوك فصبرت الحكومات قرونا تحت نيرها ثم بدأت فى إلقائه عنها ، ونشأت من ذلك حروب حتى تغلب الآخرون ، وقرروا فصل الدين عن السياسة ، فهل تنطبق هذه القاعدة على ديانتنا الإسلامية فى شكلها الخاص .

ليس فى كتابنا (أى القرآن) أن يكون لنا هيئة رئاسة دينية بإزاء هيئة رئاسة دنيوية ، بل إن الإسلام رمى إلى هدم ما كان يسمى بالسلطة الدينية وقوض كل أساس يمكن أن تنبنى عليه تلك السلطة والإسلام قانون عام للأفراد والأمم على مثال القوانين الأخلاقية المعروفة .

ولكن مع هذا الفارق الكبير ، وهو أن الإسلام قانون شامل لجميع مطالب الروح والجسد وقابل للانطباق على كافة الأمم بتوحيد مراميها ومقاصدها، ومعنى فصل الإسلام عن السياسة فصل الأخلاق العامة عن السياسة ولا يقول بهذا عاقل ».

* * *

ويقول الدكتور (محمد البهى) :

« إن الإسلام دين الله ورسالة خاتم الأنبياء والرسل ـ عليهم

الصلاة والسلام - لا يعرف الفصل بين دين ودولة وإنما يعرف الحياة الإنسانية للفرد وفى علاقته بغيره ، ولا يعرف قضية للدين والعلم وإنما يعرف مؤمنا بالله يحكى صفاته فى نفسه من : علم وغنى وخلق وإبداع ، ويتقرب بما يحاكيه إليه جل جلاله ولا يعرف حكومة إلهية ولا رفعا لإنسان عن مستواه الإنسانى وإنما يعرف إنسانا يصيب ويخطىء فى تقديره وفى رأيه وفى عمله ، ولا يعرف تفرقة بين الناس على أساس من العنصر أو العرق وإنما يعرف أن الناس جميعا سواء فى الاعتبار البشرى وفى المسئولية لله ، وأن التفاضل بينهم هو فى مدى تحقيق مستوى الإنسانية فى تفكير المؤمن وسلوكه وعمله هو فى التقوى والعمل الصالح[1] » .

وجملة القول فى هذا : أن الإسلام يربط بين علاقة الإنسان بالله وعلاقة الناس بعضهم ببعض ويوجه العلاقتين ، وهو لا يقف عند الجانب الروحى وحده ولكنه يشمل النشاط الإنسانى بأسره ، الفردى والاجتماعى . ومثل هذه النظرة تمنع بطبيعة الحال الفصل بين أمور الحياة الدينية والدنيوية وتمنع الفصل بين ما لقيصر وما لله . فالارتباط فى الإسلام بين

---

(١) من بحث مستفيض عن (الدين والدولة) .

الدين والسياسة عميق وأساسى وهو فى هذا يختلف عن الفكر الغربى الذى فصل بين مسائل الاعتقاد ومسائل الحياة العملية واعتبر كلا منهما ينتمى إلى مملكة مغايرة للأخرى . لقد فصلت أوربا بين الدين والسياسة نتيجة تاريخ طويل من تحيز الكنيسة التى فرضت الظلام والتخلف والجمود باسم الدين ، أما الإسلام فقد حرض على العلم والنهضة والتقدم وفتح الآفاق أمام التطور .

القضية التاسعة

الإسلام والروحية الحديثة

من الدعوات التى تسوقها قوى الغزو الثقافى والاستعمار الفكرى ، دعوة الروحية الحديثة التى تعتمد على استحضار أرواح الموتى . وهى دعوة تعارض مفهوم الإسلام فى أنها تخضع عالم الغيب للتجريب « فهى تلبس مسوح العلم وتصطنع اسمه حين تزعم أنها تجرى التجارب على الاتصال بأرواح من ماتوا ، وتدعى أن هذا هو سبيلها إلى رد الناس عن تيار المادية الطاغية والواقع أنها ليست حربا على المادية كما يزعم أصحابها . ولكنها إغراق فيها وإمعان فى التمسك بها . لأنها لا تقنع بإخضاع المحسوسات للمنهج التجريبى ولكنها تتطاول إلى ما وراءها تريد أن تخضعه للتجربة وإذا سلم الناس بذلك انتهى بهم الأمر إلى إنكار كل مالا يمكن ثبوته عن هذا الطريق » .

« ومن المعروف [1] أن الصهيونية الهدامة تكمن وراء كل

راجع بحث الدكتور محمد محمد حسين (الروحية الحديثة : حقيقتها وأهدافها).

الحركات السياسية والاجتماعية الكبيرة فى القرن الأخير بل منذ الثورة الفرنسية . وقد لا تكون الصهيونية هى المؤسسة للدعوة الروحية وأشباهها فبعض هذه الدعوات نشأ مستقلا عنهم بعيدا عن سيطرتهم ولكنهم تمكنوا من التسلل إليها وسيطروا عليها واستغلوها لصالحهم « والشيء الذى لا شـــك فيه أن الروحية فى وضعها الراهن شرك من شراك الصهيونية العالمية الهدامة وآلة فى أيديهم يسخرونها لهدم المسيحية والإسلام على السواء وهدم العصبية بكل أشكالها قومية كانت أم دينية ، لكى يمهدوا لقيام دولتهم الصهيونية التى يتوهمونها وسط أنقاض الخراب العالمى والانحلال الشامل الذى يسهل مهمتهم فى السيطرة على العالم كله على ما يتخيلونه » .

« ومن أقوى الأدلة على صلة الروحية بالصهيونية العالمية الهدامة المطابقة الكاملة بين مزاعم الروحيين وبين عقائد اليهود فى تصور الثواب والعقاب خاصة، فكلاهما يعتقد أنهما سيكونان فى آخر الزمان على الأرض ، ويهاجم الروحيون جميعا رجال الدين عامة مهاجمة قاسية تذكرنا بما جاء بالمادة الرابعة عشرة من مقررات حكماء صهيون :

(ويعرض فلاسفتنا كل مساوئ أديان غير اليهود . ولكن

لن يحكم أحد أبدا على ديننا من وجهة نظره الحقة . لأنه لا يلم به إلماما تاما سوى رجالنا الذين لن يخاطروا فى أية حالة بالكشف عن أسراره) .

ويذكرنا كذلك بما جاء فى المادة السابعة عشرة من البروتوكولات : « لقد عنينا خاصة بالعيب فى رجال الدين غير اليهود والحط من قدرهم فى نظر الشعب وأفلحنا كذلك فى الإضرار برسالتهم التى تنحصر فى تعويق أهدافنا والوقوف فى سبيلها حتى لقد أخذ نفوذهم ينهار مع الأيام » .

ومن أساليبهم الخبيثة فى هدم الدين ما تخترعه دوائرهم من أسماء الفراعنة من قدماء المصريين والهنود الحمر من قدماء الأمريكيين الذين يزعمون أنهم يحتلون مكان القيادة بين أرواح الموتى . وينسبون إليهم مهمة ما يسمونه (الأرواح الحارسة) فى جلساتهم،وهى الأرواح التى تتولى تنظيم الكلام بين الأرواح المتكلمة بزعمهم وتتولى فى الوقت نفسه حراسة الجلسة من تدخل الأرواح المشاغبة ومن الواضح أنهم يقصدون بذلك هدم الإسلام والمسيحية وزعزعة يقين الناس فيهما بتمجيد الوثنية الضالة الكافرة التى سبقتهما وتصوير هؤلاء الوثنيين بعد موتهم متمتعين بطمأنينة ونفوذ لا يتمتع به المتدينون بالإسلام والمسيحية .

وقد سرت هذه الدعوى إلى المشتغلين بالروحية من المسلمين الذين يمجدون الفرعونية والفراعنة فى الوقت الذى يندددون فيه بعلماء الدين .

ومنظمات الروحية مع ذلك تشترك مع كل المنظمات التى تعمل فى خدمة الصهيونية العالمية فى أنها تهدم «الخلق» حين تهدم «الدين» فالدراسات الروحية قد أصبحت أداة هدم كالدراسات النفسية المنحرفة سواء بسواء ، فالفرويديون يبررون الجريمة حين يصورون المجرم مريضا ويرجعون دوافعهم إلى عقد نفسية مستقرة فيما يسمونه العقل الباطن فليس هناك إذن ما يدعو إلى القصاص بل ليس هناك ما يدعو إلى أن يخجل مجرم من نفسه ولا إلى أن ينبذ المجتمع مجرما ويطارده بالاحتقار ما دامت المسألة مرضا لا حيلة فيه ، والروحيون يذهبون هذا المذهب نفسه من طريق آخر فهم يبررون الجريمة بإرجاعها إلى ما يسمونه (المس الروحى) .

والمجرم فى الحالين مكره على الجريمة يرتكبها تحت عامل داخلى عند الفرويديين أو تحت عامل خارجى عند الروحيين وكل منهما يهدم التقنين الخلقى من أساسه لأنه يمحو المسئولية الفردية التى هى مناط الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة ، ومن الواضح أنه يمحو

فى الوقت نفسه الشرائع السماوية كلها بل القوانين الوضعية أيضا، فهو عود إلى الجبرية الضالة المفسدة للدين وللدنيا جميعا ، وبمثل ما يفسد الروحيون على الناس دنياهم يفسدون عليهم دينهم بما يزعمون لهم من أن الجنة والنار فكرة عقلية أو حالة نفسية ، وأن الناس على اختلاف أديانهم وعلى اختلاف نحلهم وطبائعهم يعيشون فيما وراء الموت حياة هى نفسها حياتهم على الأرض ، وأن فرصة التكفير عن الذنوب لا تنقطع بموتهم ، وهم بذلك يهدمون أكبر رادع للناس عن الظلم والفساد وهم فى الوقت نفسه يزجون بأنفسهم فيما اختص الله ذاته سبحانه وتعالى بعلمه .

لا ينبغى أن يغيب عن بال الناس أن إطلاق الاتصال بالموتى وجعله فى متناول كل إنسان والاستعانة بهم فى علاج مرضانا وفى شئون دنيانا المختلفة ، إفساد للحياة التى يقوم بعض عمرانها على التنافس واستباق الخيرات وعلى المحاولة المتصلة الدائبة المتكررة فى سبيل التفوق وفى التغلب على الصعاب والانتصار على مصادر التعب والقلق ومن بينها المرض ، وهو كذلك إبطال للحكمة فى خلق الموت والحياة وما قدر الله سبحانه وتعالى وقضى فى إقامة الحجاب بينهما لحكمة يعلمها تنتظم بها حياتنا فى الدنيا والآخــــرة .

وقد أغنى الله المسلمين عن التماس الهدى والخير فى هذه المجازفات فأنزل عليهم كتابا لا يضلون إن تدبروه واتبعوه فمن أعرض عنه والتمس الهداية والرشاد فى سواه ضل وكان الشيطان له قرينا وساء قرينا .

وما أرى أولئك إلا أن يختاروا بين الكفر والإيمان وبين الضلال والإسلام ، إن الصهيونية العالمية الهدامة التى تجذب الخيوط من خلف الستار وتحرك الدمى التى نراها تتحرك على المسرح داعية إلى « المجتمع الجديد » لا تريد أن تبقى من المجتمع الجديد شيئاً : لغته وأدبه وفنونه ونظمه وأنماط حياته وخلقه ودينه ، كل شىء فيه . وبعض هذه الدمى يظن فى نفسه ويظن به الغافلون من الناس ، أنه هو الذى يتحرك ، وأنه هو الذى يقول ، وهو الذى يفكر ويعمل ، لأن الأيدى الهدامة الخبيثة لا تحركه بطريق مباشر ، فهو متأثر بما يقرؤه لأسماء كبيرة فى أعين الناس من مروجى الدعوات الهدامة ، وهؤلاء يهدمون المجتمع القديم فى كل ما ذكرته وما لم أذكره من مقوماته ليجعلوا مكانها (العالمية) التى يلوحون بها للناس ويزعمونها مفتاح الأمن والسعادة والسلام ، ولن يكون بعد (عالمية) ولن يكون إلا الخراب ولكن الخراب حائق بالمفسدين .

وذلك وعد الله سبحانه وتعالى حيث يقول :

« وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم » .

وحيث يقول تبارك وتعالى : « وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فساداً ، والله لا يحب المفسدين » .

«والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ».

« خاتمة »

« ما يزال الفكر الإسلامي يقاوم دون أن يستسلم وهو آخر الحصون الصامدة في وجه الغزو إذا ضعفت حصون المجتمعات .

وإن قيم الفكر الإسلامي ما تزال حية تناضل وتقاوم ولن تستسلم » ؟

أنور الجندي

مع تحيات أسرة الإشراف الفني للسادة القراء
في رحاب العلم والإيمان

٢٣٨٠

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة
تقـــديم لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار الأمين العـام لمجمع البحوث الإسلامية	٥
مدخـل إلى البحث	٧
حقائق أساسية	١٢
أخطار تهدد النفس الإنسانية	١٨
أضواء على التخريب	٢٣
الإسلام والعلم	٣٠
الإسلام والدين	٧٠
« والتوحيد	٨٧
« والحضارة المعاصرة	١١٥
« والنفس الإنسانية	١٢٩
« والأخـــلاق	١٨٨
« والأدب	٢١٣
« والمجتمع	٢٢٧
« والروحية الحديثة	٢٣١
خاتمـــة	٢٣٨

رقم الإيداع ٥١٦٥ لسنة ١٩٧١ م

مطبعة الأزهر

الكتاب القادم

هكذا نصوم

للأستاذ توفيق محمد سبع

الثمن ١٠ قروش

طبعت بمطبعة الأزهر